الفصل السابع

حكماء الصين

حضارة ريفية :

قال ثيوسيديدس Thucydides : « يُكِنُّ الناس كل الاحترام لما هو أبعد عنهم شقة » وكان خليقاً به أن يضيف عبـارة هى ما زالت أكثر صدقاً ،: « ويرهبونه » ، لأن الرهبة عنصر من عناصر الاحترام. ولقد صور ذلك القول المأثور ونتائجه موقف أوربا إزاء الصين لعدة قرون . وإذا استثنينا الزيارات التى كان يقوم بها من وقت لآخر مستكشف أو بعثات تبشيرية عديدة (كان المبشرون المسيحيون النسطوريون * Nestorian Christians أقدمها) ، فإن اتصال أوربا بالصين يعد اتصالا حديث عهد نسبيا . ومع ذلك ، فلقد أظهر العالم الأوربى المثقف ، بالفعل ، فى القرن السابع عشر ، اهتماماً كبيراً ، بالثقافة الصينية . كم كان إدراكه قليلا لمسألة أن الثقافة قد يُتشكَّك فى وجودها من حقيقة أننا ، مع أوثق اتصالاتنا ، ما زلنا لا نفهم إلا اليسير جدا منها . وفى الحديث عن الاتصال بين قطر وآخر ، حتى بين أقطار قريبة فى قربها كقرب إنجلترا وفرنسا ، لعله من الواجب الإشارة إلى الاتصال المستمر فقط على أقصى مستوى ظاهرى – المستوى الدبلوماسى مثلاً – مضافاً إليه « اتصالات » مختلفة يقوم بها أفراد وشركات أعمال ، أو ، فى أوقات الطوارئ ، القوات المسلحة : والأخيرة منها ، افتراضاً ، أقل نمطية منها جميعاً . ولقد كانت لأولى الترجمات للأدب الكلاسيكى الصينى ، التى ربما كانت أكثر من مثيلاتها فى أدب الهند ، تأثير عميق على العقلية الأوربية ، وبصورة خاصة العقلية الفرنسية فى القرن الثامن عشر. ويوضح « جورج سوريل Georges Sorel » فى دراسته الرائعة ، وإن كان قد أُغفل أمرها ، والتى أسماها « أوهام التقدم The Illusions of Progress » كيف أن الفيزيوقراطيين الفرنسيين كانوا ينظرون إلى الصين القديمة على أنها لون من الكمنولث المسالم ، يحكمه القانون الطبيعى للحق

(*) نسبة إلى المذهب النسطورى القائل بأن للمسيح عليه السلام طبيعتان ومشيئتان . «المترجم» .

والعدل ، ويعطى نموذجاً قد تتعلم منه » « أوربا المتدهورة » دروساً نافعة . هذا الانطباع فى الوقت الذى لم يكن خلوا من عنصر من عناصر الحقيقة ، كان نتيجة تعميم من أمثلة قليلة . وتعد « حكمة » كنفوشيوس ، على سبيل المثال ، حكمة مجددة لنشاط العقلية الأوربية ومؤثرة فيها إلى حد كبير . وعندما صارت هذه الحكمة سهلة المنال لأول مرة بدا أنها تفتح عالماً جديداً من التوازن والنضج والإدراك . لقد كانت نوعاً من الرسالة التى كان ينتظرها الأوربيون ، بعد أن أجهدهم التعصب الدينى كما أجهدتهم الحروب الناجمة عنه . أما عن أن ذلك ينطبق بصورة خاصة على الفرنسيين ، فلقد كان هذا أمراً طبيعيًّا : لأن الثقافة الإنسانية المتوازنة كانت ولا تزال المثل الأعلى للحياة الفرنسية .

تبقى حقيقة أنه لو كان كونفوشيوس « نمطاً » للثقافة الصينية فى عصره ، لاختلف مجرى حياته تمام الاختلاف عما نعرفه عنه . لقد عاش رسول التوازن والطريق الوسط حياة أكثر جهاداً من البوذا الذى كانت مثله العليا أصعب من أن تتحقق . كان البوذا فى دعوته الناس لنبذ العالم ، يتحرك من مكان إلى مكان عندما تسنح له الفرصة ، وكان يحيط به التملق والمداهنة ؛ لأن الناس أكثر استعداداً لأن يتجاوبوا مع الدعوة إلى المستحيل عن تجاوبهم مع الدعوة إلى ماهو ممكن . وباستثناء فترات قصيرة من القوة والنفوذ ، لم يجرب كنفوشيوس مرارة النفى الطويل فحسب ، بل مات ، كما سنرى خائب الرجاء . ولما حان الوقت المناسب ، عُبد ، وكان هذا وحده برهاناً كافياً لتميزه عن الأشخاص العاديين ، لأن يوم تأليه « الإنسان العادى » كان بعيداً جدًّا . وعن « المعلم » قال واحد من تلاميذه : « إنه الشمس والقمر ، الذى لا طريق للصعود فوقها ، برغم رغبة الإنسان فى أن يفصل نفسه عنهما ، أى ضرر يلحقه هو بالشمس وبالقمر ؟ . . إن استحالة وجود نظير لمعلمنا كاستحالة تسلق سلم والصعود به إلى السموات » وحكمة الصين ، كحكمة أى بلد آخر ، تصور أحسن ما يمكن أن يفعله بلد ممثلا فى شخص قلة من الحكماء ، ولَمَا كان هؤلاء الحكماء قد علَّموا ما علَّموا بالفعل ، لو لم تكن حيوات مواطنيهم تفتقر إلى الفضيلة إلى حد بعيد .

لقد اشتهرت المعرفة ، أكثر من الحب ، بأنها تطرد الخوف : قد لا يكون هذا التعميم صحيحاً جدًّا فى الواقع كما هو مفروض أن يكون صحيحاً نظريًّا . ولا شك أن عدم الثقة فى « الشرقيين » أقل انتشاراً مما كان ، ربما نتيجة لتوثيق الاتصالات . ويصعب من ناحية أخرى ، القول فيما إذا كان « الاحتقار » التقليدى الذى يكنه الشرق للغربيين ، باعتبار أنهم

حديثو نعمة ماديون ، قد تضاءل ، أو لم يعد هناك من مبرر لهذا الاحتقار ؛ ويجب أن نلتمس عذرا مناسباً لحقيقة أنها لقرون ، وفى الواقع لآلاف السنين ، شب العالم الشرقى والعالم الغربى على عزلة تامة . والعقلية هى الشىء الأخير الذى نعرفه عن شخص من الأشخاص و « عقلية » ثقافة أخرى ، إذا استخدمنا عبارة غامضة لعلاقة غاية فى الغموض ، لا يمكن أن تُعرف بالمرة حتى تصبح وقد تخللتها مؤثرات خارجية فبدلت من طابعها . ويمكن الوصول إلى الكثير من الإدراك والتبصر من دراسة الأدب السابق مادام أن مثل هذه الأبحاث يتابعها رجال خيال وتعاطف ، (وإحدى نكبات الوجود الحضارى هى أن يسند البحث إلى علماء ، هم غالباً ما يميلون إلى قطع صلتهم بالحياة الطبيعية ، نظراً للوقت الذى يحتاجونه لدراسة تكنيك عملهم) ؛ ومن بين مثل هذه المؤلفات تكون لمؤلفات الفلسفة أو الحكمة قيمتها بصورة خاصة ؛ باعتبار أنها جوهر ذلك الذى أحس به كثيرون فى غموض وإن كانت القدرة على التعبير قد أعوزتهم .

وحتى القرن التاسع عشر ، كان الشرق الأقصى يتألف من حضارة ريفية ضخمة ، حضارة ريفية محافظة بطبيعتها . وأنت لا تستطيع أن تعير ذلك ولكن تستطيع فقط أن توقفه . ولقد تبددت الريفية فى الصين واليابان ، أو تبدد جانب منها ، من الخارج . ولقد اكتشفت أوربا الصين واليابان ، ولم يحدث العكس ، وبعد أن اكتشفت أوربا هذين البلدين ، بدأت فى تحضيرهما بالقوة إلى حد كبير . والشىء الثانى الذى أجهز على الريفية هو ارتفاع مفاجئ فى مستوى المعيشة ، لأن ما يعمل على المحافظة على الريفية جملة ، وبصورة خاصة ما يبقى عليها برغم الصعوبات والعقبات ، ليس الحكومة ولا الشرطة ولا الضرائب المتزايدة ، ولكن النكبات الطبيعية . و« الحكمة الطبيعية » المعزوة إلى العديدين من الريفيين مردها كما أدرك تولستوى Tolstoy عندما أخذ على عاتقه التحرى عن سهولة انقياد عقلية المزارع مردها إلى إدراك أن موقفه لا يسمو كثيراً على الإطـــلاق على المستوى الوجودى وقائم أساساً فى طبيعة الأشياء . وحتى عهد قريب ، حتى حوالى قرن مضى ، كانت طبيعة الأشياء ، هى أن غالبية الناس فى العالم كانوا مضطرين إلى احتمال حياة كلها عمل شاق مع عائد بسيط ، تتخللها باستمرار نكبات خاصة ، عادة ما يكون الاستعداد لمواجهتها استعداداً بسيطاً ، وغالباً ما ينخفض إلى مستوى بؤس لا حد له ، نتيجة لوباء أو لحرب .

وباستثناء الظروف الطبيعية لوجود الريفى الصينى ، فقد يكون من الخطأ ، مع ذلك ،

افتراض أن حياته ، حتى فى أعظم المناطق جدباً ، كانت بالضرورة وحشية . وكلمة وحشية هى كلمة نسبية وحياة صاحب الضيعة فى رواية « توم جونز Tom Jones » من المحتمل أن تكون أكثر وحشية من حياة كثيرين من خدمه المقيمين على أملاكه . وإذا كانت كلمة وحشية تعنى مزيجاً من الشراسة وعدم المسئولية ، إذن فحياة الريفيين الصينيين متوسطى الحال كانت بدون شك أقل وحشية من حياة كثيرين من السادة المتسلطين والأباطرة . لقد كان تقليدى التضامن الأسرى وطاعة الأبناء للآباء له وجود منذ زمن غارق فى القدم ، ولم يعرف العالم الغربى شيئاً مثله . لقد كانت الأسرة تشكل صورة مصغرة للدولة : فيها الأب هو الحاكم ، وبالمثل كانت الأسرة تشكل وحدة اقتصادية كل فرد يسهم فى إسعاد الجميع وله مهمته الخاصة التى يجب أن يحققها حتى المسنين منهم ، الذين كانت استفادة الحضارة الأوربية الحديثة منهم استفادة ضئيلة . وأخيراً ، كانت الأسرة تنشىء كنيستها الخاصة بها لأن تبجيل الأجداد كان عقيدة أقوى من أى كائن يسمو فوق الطبيعة . وإذا فكرنا فى الدين بالمعنى المفهوم فى الهند ، بدا أن الصين لا دين لها على الإطلاق : ولكننا إذا عرّفنا الغريزة الدينية على أنها تلك التى تكون لها الغلبة على غرائز قوية مثل غرائز الجنس والبقاء ، لكان الصينيون بكل تأكيد فى عداد من هم عميقو التدين . وكان أجساد الأجداد ، على سبيل المثال تدفن فى قطعة الأرض الخاصة بالأسرة ، وعادة ما تكون تلك البقعة صغيرة ، ولكن كان يخصص للأجداد أخصب جزء منها باعتبار أن ذلك أمر مفروغ منه .

فكرة « الطريق » ؛ لاو – تزى Lao Tze

غالباً ما كان يُنظر إلى حكماء أمثال « لاو – تزى » و « كنفوشيوس » على أنهم قد علّموا الناس طريقاً جديداً للحياة . وليس ذلك هو كيفية إدراكهم لرسالتهم الشخصية ، فعملهم – عمل « النبى » ، كما وصلنا إلى فهمه ، خلال هذا الكتاب – كان العودة بالناس إلى الحكمة القديمة . « وكنفوشيوس » بصورة خاصة ، فيما يتصل بآرائه ، لم يدع أنها تحمل أى ابتكار . لقد أعرب عن أسفه فقط أنه نتيجة للإهمال والجهل صار الكثير من الطقوس الدينية فى حالة عدم استعمال ، فضلاً عن ذلك من فقدان الحقائق التى كانت ترمز إليها . لقد كان يعتبر نفسه ، بصورة خاصة « كجهاز إرسال » . وعلى شاكلة « لاو – تزى » أكبر الاثنين سنًّا ، شرع فى أن يوضح للناس الطريق إلى الفضيلة والقناعة . هذا المسلك أطلق عليه على الوجه

السليم جداً اسم « الطريق » أو « الطاو Tao » ، أما كيف يمكن اكتشاف هذا الطريق فقد اختلف فيه ، مع ذلك ، « لاو – تزى » و « كنفوشيوس » اختلافاً واضحاً ، أحدهما عن الآخر .

وترجمة « الطاو » بـ « الطريق » ترجمة معقولة ، مادمنا لا نعرِّفها بأنها تكنيك ، وَصِفَةٌ للسعادة ، وهذا فحسب جزء يسير من معناها ، وهى تعنى أيضاً أساس الكون ، ذلك الذى يحفظه ويمنحه الحركة والنظام . وتماماً كما أن النجوم قد حددت مسارها ، فهناك أيضاً طريق للإنسان ، وسيلة قد يستطيع بها أن يربط وجوده بالواقع : واقع قد صار بعيداً عنه إلى حد ما . و « الطاو » هى أصل كل معنى فى الكون ، وهى مسئولة ايضا عن كل الأشياء المخلوقة ؛ ولكن الأشياء يجب أن تُخلق ، والخلق فى الواقع يتم عن طريق عنصرين هما : « ين Yin » و « يانج Yang » ومعنى « ين » الحرفى هو « الظل » ويعبَّر عنه بالكتابة التصويرية بالجانب الشمالى لجبل والجانب الجنوبى لنهر ، لأنه فى الصباح تكتنف الظلمة جنوب النهر ؛ أما « يانج » فمن ناحية أخرى ، يعنى « الضوء » ، ويعبَّر عنه بصورة مغايرة ، و « يانج » إيجابى ، و« ين » سلبى ، والأول ذكر والثانى أنثى . ولكن « ين » و « يانج » لا يشكلان مذهب الثنائية Dualism الذى يقسِّم العالم إلى قسمين . هذه المبادئ من خصائص عالم الظواهر فقط . وفى لُب الواقع تُوجَد « الطاو » ، الوحدة .

ولقد ورد أول بيان لفكرتى « ين » و « يانج » ، على ما نذكر فى كتاب غامض عنوانه بقدر غموض محتواه ، اسمه « آى – تشنج I. Ching » أو كتاب التغيرات Book of Changes». وإن من يعلنون أن العقلية الصينية عاجزة عن التأمل الميتافيزيقى ليتجاهلون مقدار ما يتمتع به هذا الكتاب من مقام رفيع ! بل إن «كنفوشيوس» ، رغم اهتمامه بالميتافيزيقيات ، قام بإعداده وأضاف إليه تعليقاته هو شخصيا .

ولقد صار هذا الدليل بقائمته التى تحوى أربعا وستين هسيانج hsiangs أو « فكرة » ، والتى باتحادها شكلت واقعاً صار بمضى الوقت مصدراً لسحر رخيص ومصدراً للكهانة . وكان هذا دليلاً إضافيا على طابعه التقليدى المقدس ، لأن الكتب التى كان من المعتقد أنها تتضمن وحدها محتويات روحية أصيلة من المحتمل أنها كانت تستخدم فى مثل هذا الاستخدام أوتهمل [1] . لقد استخدمنا لفظة « رخيص » عن قصد : لأنه لوكان الغرض الأصلى لكتاب « آى » تشنج » غرضاً تنجيميًّا ، كما يبدو مؤكداً ، فإن هذا لا يقلل من عمق أساسه . ولقد

---

(١) انظر كتاب : « Sortes Virgilianae » الذى صدر فى القرون الوسطى .

أعلن عالم سيكولوجى عظيم هو س . ج . يونج C.G. Jung أن كتاب « آى – تشنج » يجسد جوهر الثقافة الصينية ، لأن ما يحذقه الشخص المنطقى العصرى – دون أن يفهمه – على أنه تنجيمى ، وما ينظر إليه العلم الحديث على أنه محض خرافة ، يراه « يونج » على أنه لون من المعرفة أقدم بآلاف السنين من تكنيكنا : « العلة والتأثير cause-and-effect technique » ، الذى ندعوه بأثره القمىء ، علماً . وفى رأى « يونج » أن كتاب « آى – تشنج » يشكل رسالة عمّا يمكن أن يطلق عليه بعبارات علم النفس الحديث : « المطابقات السيكولوجية Psychic Parallelisms وأنه يتفق ومبدأ « المعاصرة أو اتفاق زمن الحدوث Synchronism » أو « الاتحاد النسبى لزمن الحدوث Relative Simultaneity » : لأن الحقيقة الأساسية لعلم التنجيم أو « جمع المعرفة السيكولوجية لما هو قديم » ، ليست إلى حد كبير فى تحكم النجوم فى مصير الإنسان ، كالقول بأن « ما يولَد أو يؤدَى فى هذه اللحظة من الزمن له صفات هذه اللحظة من الزمن[٢] » . ولا نعرف على وجه الدقة كم عمر كتاب « آى –تشنج » ، ولكننا نعرف أنه قد تداولته أيدى جيل بعد جيل باعتبار أنه يجسد حكمة ثمينة . ومثل هذا المصير لا يُحلُّ بمجرد ملخص للتعاويذ والرقى Abracadabra .

وكان أول فيلسوف تجاوب مع دقة مبدأ « الطاو » هو « لاو– تزى Lao-Tze » ، الذى له شهرته كمؤلف كتاب بعنوان « طاو– تى– تشنج Tao-Te-Ching » ، الذى يعنى « كتاب دستور الطريق و الفضيلة . The Book of the Way and of Virtue » . و « لاو– تزى » شخصية غامضة والواقع أن هناك بعض الشك فيما إذا كان له وجود بالمرة ، واسمه نفسه قد يوحى بشخصية أسطورية ، لأنه يعنى ببساطة « المعلم العجوز » : ولكن من الواضح أن كان له اسم آخر هو « لى Li » ومعناه « البرقوق . ومن ناحية أخرى يقال إن « كنفوشيوس » التقى به ، كما ذكر اسمه عدة فلاسفة آخرين . وعندما يحذف المؤرخون اسم شخص باعتبار أنه اسم أسطورى دون أن يقدموا عنه أى دليل آخر ، فإن كل ما يعنونه عادة هو أنهم لم يكتشفوا بعدُ مجموعة أخرى من الأساطير . على أية حال ، فإنه من المفروض أن

---

(٢) انظر كتاب : « سر الزهرة الذهبية The Secret of the Golden Flower ترجمة وشرح ريتشارد ويلهلم Richard Wilhelm مع تعليق أورلى كتبه .س .ج .يونج C.G. Jung (دار كيجان بول للنشر ، ١٩٤٥) .

« لاو – تزى » ولد فى سنة ٦٠٤ ق . م . فى محافظة هونان Honan فى الصين الوسطى ، وبرغم أنه نشأ فى بيت فقير ، فقد ارتقى حتى صار أميناً للمكتبة الملكية فى تشو Chou وعاش حتى سن متقدمة وذاع صيته كحكيم ، بيد أنه كان واضحاً أنه فشل فى ممارسة أى نفوذ واضح خارج دائرة صغيرة . وقرب نهاية حياته ، إيماناً منه بأن مآل وطنه الفوضى ، عزم على مغادرته . وعند الحدود ، لما تعرف موظف الجمرك على الحكيم المبجل ، صرح له بمغادرة البلاد بكل ما معه من أمتعة بشرط أن يخلف وراءه شيئاً لصالح بلاده ، أعنى حكمته . ولما لم يكن « لاو – تزى » قد دوّن أفكاره حتى ذلك الوقت ، وافق على هذا الشرط . ولما بدأ فى العمل على الفور ركز كل أفكاره فى خمسة آلاف كلمة ، وهى أفكار يجب أن تسجل فى سجلات الفلسفة ، وهكذا دُوّن كتاب « طاو – تى – تشنج » . أما ما حدث لـ « لاو – تزى » بعد ذلك ، فلم تذكر أية أسطورة عنه شيئاً ، اللهم إلا تسجيل تاريخ وفاته الذى حدد بعام ٥١٧ ق . م .

ولربما كانت فلسفة « طاو – تى – تشنج » واحدة من أكثر الفلسفات ثورية فى صياغتها ، وإذا فُسِّرت تفسيراً حرفيًّا ، أو فسرت حرفيا بالمعنى الذى نستطيع أن نفهمه ، لمثلّت هجوما على كل شىء اتجه إلى تشكيل ما يدعى حضارة . وينصحنا « لاو – تزى » « بألا نتدخل فى أمر من الأمور » وهو يطالب الحكومات بصورة خاصة بألا تتدخل فى أمر من الأمور . وباختصار لا يرى شيئاً سوى الشر فى فكرة الحكومات . وعلى غير شاكلة جل الفلاسفة الآخرين ، هو لا يمجد المعرفة ولا يصفها بالفضيلة كما فعل سقراط بعد ذلك بزمن يسير . بل هو على العكس من ذلك يمجد الجهل الذى يصفه بصورة قاطعة بالسعادة . ومرة أخرى ، يرفض الحكيم الحقُ أن يجادل . وباتباعه « الطاو » يضرب مثلاً للبساطة والرضا إذ ، باعتباره بطبيعة الحال مَثَلٌ مُعْدٍ ، له تأثير مهدئ على مواطنيه . و« الحكيم » كما يقول « لاو–تزى » : يباشر مهمته بدون مجهود ، ويقدم تعاليمه بدون كلمات » . إن كافة الوصفات السوية لخلق مجتمع عادل يغض هذا الفيلسوف النظر عنها باعتبار أنها لا جدوى من ورائها ، بل خطرة ويجب أن تمتنع عن ذلك ، لأنه ليس أخطر من تلقين الاستقامة ذاتها ، مادام أن كل المحاولات فى بث الخير من خلال التشريع سينتج عكس ما هو مقصود . « لو تخلصت من العلم ، لما عرفت الحزن ، تخلص من الحكماء ولا تتقبل الحكمة . وسيستفيد الناس مائة مرة . لا تركن إلى الإحسان وانبذ الاستقامة وسيعود الناس إلى واجبهم الأخوى وإلى الحب الأبوى .

تخلص من الحيل وانبذ المكاسب يختفى السالبون واللصوص . . كن صريحا وتمسك بالبساطة ».
هذا هو جوهر رسالته .

ومثلما ينصح « لاو – تزى » مواطنيه بألا يتدخلوا فى أمر من الأمور ، فهو ينصحهم كذلك بأن يبقوا حيث هم ، وفى ذلك يقول : « دون أن يغادر المرء بلاده ، يستطيع أن يعرف كل شىء عن العالم ، وبدون التلصص من النافذة ، يستطيع المرء أن يرى طاو السماء ، وكلما طالت أسفار الإنسان كلما قلت معرفته ، ولذلك فإن الحكماء يعرفون كل شىء دون أن يسافروا . وهو يسمى كل شىء دون أن يراه ، وينجز كل شىء دون أن يؤديه » ، لذلك فالمجتمع المثالى هو « دولة صغيرة بها قلة من الناس » ، هذه القلة يجب أن تكون راضية بما عندها ، وستكون راضية بما عندها ما لم تكن تسعى لتوسيع أفقها ، « وبرغم أن الدول المجاورة داخل نطاق الرؤية ، ويُسمع صياح ديكتها ونباح كلابها ، فلن يقترب أهالى (تلك الدولة الصغيرة) منها طوال حياتهم » . لا شك أن هذا المبدأ كان غريباً أن يصدر عن شخص هو ، فى الوقت الذى كان يدوِّنه على ورق (أو قطع البامبو كما كان هو المتبع فى الواقع) كان يعد نفسه فعلا لمغادرة وطنه ، ولكن وجهة نظره كانت طريفة فى أنها كانت حلا بالنسبة للكائنات البشرية التى لم تجربها قط ، يصعب الحكم عليها على الفور . ولربما كان أحسن تلخيص لأفكار « لاو – تزى » عن فن الحكم ، هو فى عبارة نمطية فى تعبير وتفكير الحكمة الصينية كليهما : « احكم دولة كما لو كنت تطهو سمكة صغيرة : أد ذلك فى رفق » .

مثل هذه التعاليم المعبر عنها بوعى وبصراحة جديرين بالاعتبار ، قد لقيت صدى فى كل عصر ، إن لم يكن فى كل جيل من الأجيال . وليس هناك من دليل على أن « جان جاك رومو Jean Jacques Rousseau » عـرف أعمال لاو – تزى » ولكن أفكاره الأولى عن المجتمع وعن فن الحكم متماثلة ، مع احلال الطبيعة ، محل « الطاو » . والمشكلة التى أثارتها مثل هذه الرؤيا المثالية للوجود هى ، ولا حاجة للقول بأنها مشكلة عملية : ما هو موقف دولة صغيرة إذا ما واجهت – كما لابد أن يحدث إن عاجلا أو آجلا – هجوماً أو تدخلا خارجيا ؟ كان « لاو – تزى » حكيماً بما فيه الكفاية فى تنبئه بهذه المشكلة . كما تنبأ أيضاً ، وحده دون غيره من المفكرين القدامى ، بكلمات السيد المسيح : « قابل الإساءة بالإحسان . أنا فى نظر الصالحين صالح ، وفى نظر الطالحين ، أنا أيضاً صالح ، ومن ثم يجب على الكل أن يكونوا صالحين . أنا فى نظر المخلصين مخلص ، وفى نظر من هم غير مخلصين أنا

أيضاً مخلص ، ومن ثم وجب على الكل أن يكونوا مخلصين . . إن ألين شيء فى العالم يصطدم ويتغلب على أصعبها . . . ليس فى العالم ألين أو أضعف من الماء ، ومع ذلك فإنه فى مهاجمة الأشياء الثابتة والقوية ، ليس هناك من شيء يمكن أن يتفوق على الماء » ، ويضيف فى إنصاف : «كل هذا يعرفه العالم ولكنه لا يمارسه . . هذه هى كلمات الصدق ، برغم أنها تبدو متناقضة » .

لماذا يوجه «لاو – تزى » مثل هذه الأهمية للسلبية ، بل يتمادى إلى التصريح بالتناقض التالى ، الذى ورد فى العبارات المختلفة قليلاً ، والتى تفوه بها «كريشنا» وهو أننا يجب أن نعمل فى «جمـــود[٣] Inaction » ليس الأمر فى أنه يقيم التناقض بقصد التناقض ذاته ، كما نشك فى أن بعض حكماء الهند قد فعلوا . إن مبدأه عن السلبية نتيجة منطقية لمفهومه عن طبيعة «الطاو» . «والطاو» ، كما سبق أن رأينا ، مفهوم مماثل جدا للمفهوم المصرى ماعت Maatوالإغريقى لوجوس Logos يبعث الحياة ويتغلغل فى الواقع : وهو أيضاً يتولد ويتجسد . وقد ابتدأت ، فى الواقع ، الترجمات الصينية لفاتحة الإنجيل الرابع [٤] كما يلى «فى البدء كان «الطاو» ، «والطاو» كان عند الإله ، وكان «الطاو» «الله» وتماماً كما يرد فى موضع من المواضع أن «الكلمة صارت جسداً» فكذلك «النور الذى ينير كل إنسان» آتياً للتعرف على قرابته بالقوة المقدسة . وإذا أردنا ترجمة هذه العملية بعبارات من الفكر الهندى نقول : تصبح «الآتمان» «براهمان» . ويدرك الفيلسوف الطاوى تطابقاً مماثلاً . والعالم فى حالة من البؤس ، أو بالأحرى لا يعيش الإنسان على سجيته فى عالمه ، لأنه قد فشل فى مطابقة «طاويته» مع الكون . فالاثنان فى نزاع . دعه يكف عن التعلم ، وعن مراعاة العرف ، بل دعه يكف عن الحضارة ، وبذلك سيعود التناسق وسيتضح أن «الطاو» التى فى أعماق نفسه هى «الطاو» التى كان «لها وجود قبل السماء والأرض ، بلا ، حركة وبلا عمق ، تقف وحدها ولا تتبدل أبداً ، هى أم الكون» .

---

(٣) العبارة الصينية الخاصة بهذا المفهوم الشهير ، مفهوم «الجمود» هى «وو واى . Wu Wei» .

(٤) قارن ذلك بالأصحاح الأول فى إنجيل يوحنا (وهو الإنجيل الرابع فى العهد الجديد) «فى البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله . . . كان النور الحقيق الذى ينير كل إنسان آتياً إلى العالم . . . إلى خاصته جاء . . . والكلمة صار جسداً وحل بيننا» . (إنجيل يوحنا) الأصحاح الأول ، آيات : ١ – ١٤ ، (المترجم) .

كونج – فو – تزى Kung-fu-tze : مولده وتنشئته :

لم يكن فيلسوفان أكثر اختلافاً أحدهما عن الآخر فى شخصيتهما من «لاو – تزى» و«كنفوشيوس» : وبرغم هذا الاختلاف فى المظهر ، كان تأثيرهما محتوماً عليه بعدم التكافؤ. ولا تزال الطاوية عقيدة حية : وأحدث تقدير هو أنه لا يزال يعيش فى الصين ، ثلاثة وأربعون مليوناً من الطاويين . وهذا عدد ضخم ، ولكن لعله أبسط دليل على قوة العقيدة ، كالقول إن عدداً مماثلا من الناس فى فرنسا كاثوليك . وفضلاً عن هذا ، يجب أن نأخذ فى اعتبارنا عند الحديث عن الصين ، أن التمسك بصورة واحدة من العقيدة لا يحول دون التعاطف مع عقيدة أخرى أو عدة عقائد . والصينى المتعلم ، لمجرد أنه متعلم ، على استعداد لأن يقدم احترامه لأية عقيدة مماثلة ؛ وما يؤمن بكراهيته هو : التعصب الدينى Fanaticism والتحزب Bigotry ولعل الديانة الحقيقية للصين ، فى أعظم مستوى فكرى لها ، هو التسامح الدينى . وفى الوقت نفسه ، يجب ألا نتصور أن الاستعداد والقدرة على التسامح مع العقائد الأخرى هو بالضرورة أمر غريزى فى الشعب الصينى (الذى هو على أية حال كثير العدد ، لكثرة يصعب إجمالها فى تعميم من هذا النوع) : إذ أن مثل هذا الموقف هو نتيجة تقليد طويل وراسخ فى العمق . وواضع هذا التقليد – وهو تقليد من أعظم التقاليد الإنسانية – هو «كنفوشيوس» .

واسم «كنفوشيوس» هو أحسن الأسماء التى أمكن لأوربا ، بثقافتها اللاتينية ، أن تعيه من اسم «كونج – فو – تزى» الذى يعنى حرفيا «كونج ، المعلم» . كان اسمه الحقيقى هو «كونج – تشيو Kung-Chiu» . وعلى شاكلة غيره من زعماء البشرية الروحانيين ، حظى «كنفوشيوس» بمولد إعجازى ، مصحوباً بمعجزات سماوية . لقد كان الابن غير الشرعى لأب طاعن جداً فى السن . ولد «كنفوشيوس» فى سنة ٥٥١ ق.م. فى مملكة لو Lu ، شانتونج Shantung الحالية . ولقد وصفوه ، ولربما كان على سبيل التورية ، بأن كانت له شفتا ثور وفم أشبه بالبحر . ولعل أكثر الأوصاف صدقاً هو أنه كانت له جبهة ضخمة ، ومن ثم أطلق عليه اسم تشيو Chiu . وكما قيل عن بوذا ، انفجرت نافورة لتغسل الطفل حديث الولادة ، الذى ولد فى كهف قادت أمه إليه روح مبشرة . وكانت تنشئة الطفل صعبة. وبعد وفاة والده اضطر لأن يعول أمه ، فكان يؤدى أعمالاً إضافية بعد ساعات الدراسة . ولا شك أنه كان دائماً يكبر عمره . ويمكننا أن نتصور طفولة جل عظماء الفلاسفة فيما عدا «كنفوشيوس» – ولا شك أن

جبهته الضخمة قد جعلته يبلغ سن المراهقة مبكراً ، ومع ذلك فانه لم يكن بحال من الأحوال انطوائيا أو مدمنا على القراءة . وكانت الرياضة التى يحبها ، بصورة خاصة ، هى رماية السهام وصيد السمك . وكان منذ نعومة أظفاره شديد الولع بالموسيقى بالرغم من أن تذوقه لها —وهنا كما فى أى مكان آخر —كان متحفظاً . ولقد تزوج فى سن التاسعة عشرة . ونحن لا نعرف الكثير عن حياته الزوجية . وكانت زوجته على ما نعلم ، من ولاية سونج Sung ، وهى ولاية مجاورة لولايته . وتقرر بعض الروايات أن الاثنين انفصلا بعد زواج دام أربع سنوات ، فى حين أن البعض الآخر منها تذكر أن الانفصال قد تم فى الوقت الذى نُفى فيه «كنفوشيوس» ، والذى حدث بعد ذلك بعشرين سنة . ويوحى مجموع البيانات التى فى متناول أيدينا بأن عقد الزواج ، نظرا لأنه قد اتفق عليه طبقا لأسباب تقليدية ، قد أُبقى عليه طوال المدة التى تمليها التقاليد . وكانت ثمرة الزواج ابنا له هو «كونج لى Kung Li » أوكما سُمِّى فى المقتطفات الأدبية The Analects « بويو Po Yu » . ونحن نعلم أن « بويو » تتلمذ على أبيه ، ولكن من الغريب القول بأن الاثنين يبدو أنه لم يكن يربط بينهما أى تعاطف أقوى . وكان الحوارى الذى أحبه «كنفوشيوس» ، ويعد بمثابة قديس يوحنا أو «أناندا» الكنفوشيوسية – كان «ين هوىYen Hui» ، الذى كانت حياته نموذجاً لما ينبغى أن تكون عليه حياة الحكيم الحقة .

مارس «كنفوشيوس» رسالته معلماً أو حكيماً أكثر تبكيراً فى حياته من معظم زعماء البشرية الروحانيين وما أن بلغ سن الثانية والعشرين حتى ذاع صيته فعلا لحكمته ولحياته المستقيمة معاً . وفضلاً عن هذا ، كانت له موهبة عظيمة فى الفصاحة . ولما شجعه نفر من عشيرته المتحمسين . قرر أن يفتتح مدرسة وكان ما انتهى إليه هذا الأمر هو أنه فتح داره لأى شخص يريد العلم : وكانت المصروفات تجبى على أساس قدرة التلميذ على الدفع . بيد أن «كنفوشيوس» لم يبدأ بتقديم نوع من الحكمة المجردة . لقد أخذ على نفسه تعليم « موضوعات » معينة ، أهمها التاريخ والشعر ومبادئ ما أسماه بالسلوك العامDecorum . ولما كان فى اعتقاده أن المجتمع يعانى من إهمال الحكمة التقليدية ، لذا فقد بذل «كنفوشيوس» جهوداً مضنية ليلقن تلاميذه معنى الشعائر القديمة والأناشيد الرسمية ، ناهيك عن مثل تلك المستودعات من الحقيقة كـ«كتاب التغيرات» . وكان فوق كل شىء على إيمان كبير بفاعلية وتأثير الموسيقى فى الصقل الأخير لشخصية الإنسان ، ولكن هذا القول قد لا يتفق والموسيقى الصينية الحديثة – مثل أغنيات تشنج The Songs of Cheng» التى جاءت بنتيجة عكسية . أما عن موقف «كنفوشيوس» من

الموسيقى فيكاد يشبه موقف « شوبنهاور » منها : لم يكن يؤمن فقط بأنها تصوِّر تناسق الكون بل ترمز إلى الوئام الذى ، لو وهب للحكام المتنورين لعم الدولة بأسرها . ولاشك أنه ربما أصابته الحيرة من مناهجها التعليمية الحديثة ، التى غالباً ما يُنظر فيها إلى الموسيقى على أنها إنجاز « فائض » أو إضافى ، على أحسن تقدير . وقد يكون إهمال « فلسفة » الموسيقى أوضح دليل على شعور الإنسان بالعزلة فى الكون .

اتساع الشهرة :

لما تزايد عدد تلاميذه ، بدأ يصبح « لكنفوشيوس » نفوذ فى البلاد ، لأن كثيرين من تلاميذه الشبان ، مالبثوا أن تقلدوا مراكز قيادية . وفى سنة ٥١٨ ق . م . أعرب وزير ولاية « لو Lu » عن أمنيته ، وهو على فراش الموت ، فى أن يلتحق ابنه بمدرسة « كنفوشيوس » . منذ تلك اللحظة ، صار « كنفوشيوس » ندًّا ، فضلاً عن كونه معلماً ، للأمراء ؛ ولهذا كان راضياً بالبقاء فى أكاديميته الصغيرة معلماً حى الضمير ، ثم أحس بالرغبة فى السفر ، كما تلقى بالمثل تشجيعاً رسميًّا على ذلك . وكانت أولى رحلاته الهامة إلى عاصمة الولاية « لو – يانج Lo-Yang » (حالياً هو نان Honan) . ولقد فتنه ما رآه فى هذا المكان الحافل بالحركة وبخاصة إقامة الشعائر الدينية والاحتفالات الرسمية فى المعابد الفخمة .

وفى « لو – يانج » كان هناك أيضاً مصدر آخر لاجتذاب « كنفوشيوس » : فلقد كان هناك « لاو – تزى » ، وكان وقتذاك فى السابعة والثمانين من عمره . على أن « كنفوشيوس » ، الذى كان عمره أقل من نصف عمر « لاو – تزى » برغم ما قدمه للأخير من احترام واجب ، يبدو أنه قد ترك عند « لاو – تزى » انطباعاً أقل من أى انطباع تركه عند معظم الناس غيره . وفى رده على بعض الأسئلة الغامضة عن التاريخ القديم وعن قدماء رجال الحكمة ، عبَّر الرجل العجوز عن نفسه بصورة أكثر عنفاً وصراحة معا ، إذ قال : « إن من تسأل عنهم قد تعفنوا مع عظامهم فى التراب ، وعندما تحين ساعة الرجل العظيم ينهض للزعامة ، ولكن قبل أن يحين أوانه توضع العراقيل أمام كل محاولاته . لقد سمعتُ أن التاجر الناجح يخفى ثروته بحرص ، ويعمل كما لو كان لا يملك شيئاً – وأن الرجل العظيم برغم وفرة إنجازاته ، بسيط فى سلوكه وفى مظهره . تخل عن كبريائك ومطامحك العديدة ، وعن تظاهرك وعن أهدافك العريضة . إن سجيتك لن تكسب شيئاً من كل هذه الأشياء . هذه هى نصيحتى لك » .

ويبدو أن «كنفوشيوس» وعى هذه الكلمات عن ظهر قلب بصورة جدية ، لأنه عندما عاد إلى مدرسته نقل انطباعه عن العجوز المنفى فى العبارات الحية التالية : « أعرف كيف تستطيع الطيور أن تطير أو السمك كيف يسبح والحيوانات كيف تعدو ، ولكن العدَّاء يمكن إيقاعه فى الشرك والسبّاح يمكن قنصه ، والطائر يمكن إصابته بالسهام ولكن هناك التنين – لا أستطيع أن أقول كيف يمكنه أن يعتلى الريح خلال السحب ويصعد إلى السماء . لقد رأيت اليوم « لاو – تزى » وأستطيع أن أقارنه فقط « بالتنين » مثل هذا كان عرفان فيلسوف الإنسانية بقدر رسول مذهب الطبيعةالتصوفية : عرفانا أحسن ما يوصف به أنه عدم الفهم المحترم .

وإذا كان «كنفوشيوس» لم يُظهر أى ميل شخصى للتفكير الصوفى ، فلقد كان على علم بالسحر الذى كان يؤثر به مثل هذا التفكير فى جمهرة البشر . وهو لم ينكر وجود عالم روحى أسمى ، بل هو بالأحرى أعطى الأولوية لاعتبارات الحكومة الإنسانية والرفاهية والسعادة . ولقد اتبع فى تأملاته الخاصة ، مثلما اتبع فى تعاليمه ، منهج البحث العقلى والمنطقى . أما عن تطوير حالات السبات طبقاً لمبادئ اليوجا ، فقد رفض دائما أن يطبقه بنفسه ، بعد بضع تجارب مبكرة : « لقد قضيتُ يوماً كاملاً بدون طعام ، والليل بطوله بدون نوم لكى أتأمل ولكن بلا جدوى . من الأفضل التعلم » . ومرات ومرات ، عندما كان يُسأل عن أمور فيما وراء الخبرة المباشرة البشرية ، كان «كنفوشيوس» يجيب بكلمات أكثر وضوحاً من البوذا نفسه ، وإن كانت له دوافع مختلفة جداً . وعندما سأله تلميذه « تزو – لو Tzu-Lu » أن يتحدث عن واجب الإنسان إزاء أرواح الراحلين ، أجاب « إذا كنتَ لاتزال عاجزاً عن أداء واجبك إزاء لأحياء ، فكيف تستطيع أن تؤدى واجبك إزاء الأموات ؟ » وفى مناسبة أخرى ، عندما سُئل عن طبيعة الموت ذاته ، أجاب فى شىء من الاستخفاف : « إذا كنت لا تفهم الحياة ، فكيف يمكن أن تزعم أنك تفهم الموت ؟ » وكثيراً ما كان يتعرض تلاميذه لانتقادات بل سخريات النساك الذين كانوا يحيون حياة البساطة وحياة العزلة ، لأنه حتى ذلك الوقت كان ينظر إلى الشخص الحكيم على أنه الشخص الذى من الأفضل أن يركز أفكاره ويتخلى عن كل اتصال بالعالم . ولقد كان « لكنفوشيوس » بالنسبة لهذه السخريات ، دائماً رد مؤثر جدًّا : « إننى لا أستطيع أن أسير مع أسراب الطيور وقطعان الحيوانات ، وإذا لم انضم إلى البشر فإلى من يمكن أن أنضم ؟ وإذا لم يكن للحكم الصائب أن يسود العالم ، فلا ينبغى لى أن أشارك فى إصلاحه » .

وفى سنة ٥١٧ ق. م. حلت أزمة بولاية لو Lu . إذ إن الدوق الذى كان يعانى من ضغط بعض الزعماء حاول استعادة نفوذه . وفشل الانقلاب . ولهذا رضى «كنفوشيوس» أن يتبع مولاه إلى المنفى . وبينما كانا فى طريقهما إلى ولاية تسى Tsi المجاورة ، التقى الحكيم وتلاميذه بامرأة عجوز تبكى أمام قبر ، فسألوها ماذا ألمَّ بها ، فأجابت بأنه فى نفس البقعة شهدت مأساة ثلاثية : إذ قتلت النمور حماها وزوجها وابنها . فسألها «كنفوشيوس» ، محاولاً مواساتها ، لماذا قررت أسرتها ، برغم ما حدث أن تستوطن فى مثل هذه البقعة الخطيرة من البلاد . فأجابت قائلة : «لأنه لا وجود هنا لأية حكومة جائرة» ، فالتفت «كنفوشيوس» إلى تلاميذه وقال : «دوِّنوا هذا : إن الحكومة الجائرة أكثر وحشية من النمر» .

وعندما بلغوا «تسى» ، اجتمع الدوق على الفور «بكنفوشيوس» ، وقد أعجب الدوق بملاحظات الحكيم عن فن الحكم ، وفكر فى تعيين «كنفوشيوس» فى منصب رفيع ، ولكن هذا التفكير لقى معارضة من جانب وزرائه الآخرين ، الذين سخروا من الجمهرة الصغيرة التى كانت حوله من طلاب العلم ، منددين بأنهم أدعياء علم غير عمليين . أما عن رأيهم فى «كنفوشيوس» نفسه فكانوا لا يعتبرونه أكثر من فضولى شاذ ، تَغْلُب عليه رقة آداب الرسميات . وقالوا : «قد يستغرق الأمر أجيالاً لاستنزاف كل ما يعرفه عن الاحتفالات الخاصة بالنهوض والجلوس» وبقى «كنفوشيوس» لعدة سنوات ولكن دون أن تُسند إليه حتى أبسط وظيفة حكومية ، وأخيراً عندما علم أن الأوضاع فى «لو Lu» قد تحسنت بعض الشىء ، عاد أدراجه إلى وطنه .

الحكيم موظفاً : المنفى .

لقد كوفئ «كنفوشيوس» أخيراً على صبره ، إذ قرر الدوق الجديد ، وكان يدعى «تنج Ting» ، أن يجرى تجربة إسناد أمور الدولة إلى شخص ليست له أية تطلعات سياسية ظاهرة . لقد كان الرجل الذى علَّق قائلاً «لا يهمنى أن يكون لى مكان : بل يهمنى كيف يمكننى أن أكون صالحاً لمكان» هو الذى وقع عليه الاختيار . وفى سنة ٥٠١ ق.م . صار «كنفوشيوس» رئيساً للقضاة أو حاكم مدينة «تشونج – تو Chung-Tu» . وعلى الفور بدأ فى العمل . وفى فترة وجيزة جداً ، كما روى لنا ، حدث تحول اجتماعى مذهل . وقد بلغ مستوى الأخلاق درجة من السمو لم يبلغها من قبل أبداً ، وكان يبدو أن العصر الذهبى قد عاد . وقد

بلغت الأمانة التامة مبلغاً حتى إنه إذا ماسقطت أية أشياء ثمينة فى الطريق العام أن تترك فى مكانها أو تعاد إلى أصحابها . وقد صار الناس فى دهشة من فضيلتهم هم أنفسهم . ولما وجد الدوق أن أعباء الحكم قد خفت بصورة جديرة بالاعتبار ، رقى «كنفوشيوس» إلى منصب وزير الأشغال العمومية ، وقد قرر الوزير الجديد أن يكون عمليا ، فاتخذ الإجراءات اللازمة لمسح الأراضى وتحسين الزراعة ، ونتيجة لذلك ، عم الرخاء بسرعة وفقاً لأسلوب مثالى . وقد دفع هذا بالدوق ، الذى لم يكن أقل بهجة من رعيته ، إلى أن يطوق «كنفوشيوس» بمزيد من المسئوليات . وبعد أن رقى إلى وصيفه وزير العدل ، اسندت إليه أخيراً وظيفة رئيس الوزراء ، وأحسن «كنفوشيوس» استخدام سلطة تعد السلطة الثانية اسميا ، إن لم تكن أسمى بكثير عمليًّا من سلطة «تنج» نفسه . وعند هذه النقطة تصبح التسجيلات الصينية وجدانية ، فنقرأ مثلاً : «كان الغش والفساد خجلين وأخفيا رأسيهما ، وصار الولاء والإيمان الصادق خصال الرجال ، والطهر ودماثة الأخلاق صفات النساء . ووفد الأغراب فى حشود ، من الولايات الأخرى ، وصار كنفوشيوس معبود الناس». قول فيه مبالغة بلا ريب . ولكننا لدينا أعمدة «آشوكا» التذكارية لتبرهن على أنه ، إذا ماعُيِّن حاكم له شخصية قوية ، فإن مثل هذه التغييرات ليست بالمستحيلة . أما ماهو مستحيل ، إذا ماحكمنا بطبيعة بشرية ، هو أن تستمر وتبقى .

ولم تستمر بالفعل - برغم أن «كنفوشيوس» قل أن يكون ملوماً على ذلك . ولم يأت عنصر التمزق من الداخل ، بل من الخارج . ذلك أن حكام الولايات المتاخمة لولاية «لو Lu» بدءوا يحسون جديًّا بأنهم فى خطر ، إذ كانت إنجازات «كنفوشيوس» التى نوَّه بها الشعر ومجدها ، ربما دفعت الناس المغلوبين على أمرهم فى أية ولاية أخرى إلى الإصرار على تطبيق أسلوب مماثل من جانب حكامهم . وكان هؤلاء المستبدون مقتنعين بألا فائدة من استقامة الشعب ولا من إخلاص مفسريها فى «لو Lu» . ولما أحس وزير ولاية «تسى T'si» أن من المفروض عليه أن يفعل شيئاً جادًّا قبل أن تتفشى عدوى الأمانة فى ولايته ، فكر فى خطة ليضع «كنفوشيوس» ودوقه كلا منهما فى مواجهة الآخر . ففى يوم تلقى دوق ولاية «لو» هدية نفيسة ، كانت تتألف من ثمانين مغنية شابة جميلة أو محظية ، ومائة وعشرين جواداً . فلما علم «كنفوشيوس» بطبيعة هذه الهدية ، أمر بأن تبقى المجموعة كلها خارج العاصمة . ولكن لسوء الحظ ، حدث أن واحداً من موظفى بلاط الدوق ، وقد تسلل إلى خارج العاصمة ليستكشف

أمرها ، عاد وهو يروى رواية براقة عما شاهده . وبرغم معارضات «كنفوشيوس» ، استسلم الدوق للإغراء ، ونُقلت الفتيات إلى الحريم الملكى ، واستؤنفت الاحتفالات التى كانت قد نُسيت منذ عهد طويل ، وتوقفت الأعمال العامة بما فيها الأضحيات الدينية . ولما وجد «كنفوشيوس» أنه قد تنوسى وأنه قد حُطَّ من قدره ، ووجد أنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً ، اختار أكرم طريق للإعراب عن استيائه ، وهو أن يعود مرة أخرى لحياة النفى . وكان تعليقه على هذا الفشل تعليقاً بارعاً إذ قال : « لم ألتق قط بإنسان يعشق الفضيلة بقدر عشقه للجمال » .

ودام تجواله لما لا يقل عن ثلاثة عشر عاماً . لقد قرر بادئ ذى بدء أن يزور ولاية واى Wei حيث أحس بأنه يمكن أن يعتمد على الأقل على ضيافة صهره ، فرحب به الدوق ، وكان يدعى « لنج Ling » رحب به فى بادئ الأمر ترحيباً ينم عن احترام زائد ، وهو لم يختف « بكنفوشيوس » فحسب ، كاحتفاء « ديونيسيوس السراقوصى Dionysius of Syracuse» الشاب بأفلاطون ، بل منحه أيضاً معاشاً مادياً عينياً . وبالرغم من هذا كان عليه أن يعانى من نفس ماعانى منه أفلاطون نفسه وهو كشف الخداع . وفى مجال المعرفة ، برهن « لنج » على أنه أكثر سفاهة من « تنج » . ومرة أخرى ، عزم «كنفوشيوس» على الرحيل ، ولكنه واجه مخاطر فى الطريق مما أجبره على العودة برغم أنفه إلى « واى » . وكان واضحاً أن البلاط لم يكن فى وضع يساعد على الترحيب بعودته لأن زوجة الدوق ، وكانت تدعى « وان – تزو Wan-Tzu» ، كانت ذات شخصية لعوب ، وكثيراً ما عارضت فى وجوده . لقد كان هناك يوماً ما تمثال فى باريس للملك لويس الخامس عشر King Louis XV يمتطى جواداً تحيط به صور أربع فضائل ، وكان المثل الشعبى يقول : « تسير الفضائل على الأرض وتمتطى الرذيلة جواداً[٥] فلما قاد «كنفوشيوس» عربته خلف عربة « وان – تزو » كان تعليق الشعب تعليقاً مماثلاً : « الشهوة فى المقدمة والفضيلة خلفها »[٦] . وبأسرع ما يمكنه ، غادر «كنفوشيوس» الولاية مرة أخرى .

وفى صحبة تلميذه الوفى « تزى – كونج Tze-Kung » مر الفيلسوف ، الذى أصبح الآن طاعناً فى السن ، بأعنف خبراته طهراً . ولما كان قد تعرض لسخرية كلا الناس المجربين ومَنْ ادعوا بأنهم بالغو الاهتمام بالأمور الأخروية ، وجد نفسه يميل إلى اعتبار الناس أعداء

---

(٥) النص الفرنسى هو : "Les Vertus sont à pied, le Vice est à cheval"

(٦) النص الإنجليزى المترجم عن الصينية هو . "Lust in front, virtue behind"

لدودين . لقد هبط من أسمى مركز تقلده إلى موقف طريد العدالة ، إلى أضحوكة ، إلى هدف لكل إساءة ، وفى مناسبة واحدة على الأقل كان هدفاً للعنف ، لأنه كاد ينجح أخ لأحد تلاميذه فى قتل مجموعة حواريه الصغيرة مرة واحدة بأن أسقط شجرة فى طريقهم . وبالرغم من أنه لم يُصَبْ أحد ، فلقد كانت هذه الفعلة كافية لتفريق شمل تلاميذه الفزعين ، وما لبثت أن جاءت فترة كان يتجول فيها «كنفوشيوس» وحده . ولقد حدث أن سأل «تزى – كونج» بعض الفلاحين هل شاهدوا «المعلم» كان الجواب أن قد شوهد قريباً من المكان ، رجل عجوز «تعس ككلب ضال» . ولما أحيط «كنفوشيوس» علماً بهذا الوصف ، ضحك ملء شدقيه وقال : «إنه أحسن وصف» . ويبدو أن «كنفوشيوس» كان لا يتخلى طوال حياته عن فكاهة ساخرة .

ومع الكثير من الإخفاق والصدمات ، فإنه من العجيب أن «كنفوشيوس» لم ييئس من أن يجعل نفسه دائماً ذا فائدة لمواطنيه ، ولكنه لم يفقد أملاً قط . لقد أعلن مرة : «لو وظفنى أى أمير من الأمراء عنده لفعلتُ شيئاً جديراً بالاعتبار فى مدى اثنى عشر شهراً ، ولبلغت الحكومة درجة الكمال فى مدى ثلاث سنوات» . كان دائماً على استعداد لأن يضع خدماته تحت تصرف أى شخص يطلبها ، ولكنه رفض قبول أية عروض قد تتضمن الإضرار بمبادئه ، ولذلك فإنه بالرغم من أن الدوق «لنج» ، دوق ولاية «واى» دعاه عدة مرات للعودة إلى الولاية ، لم يتقبل «كنفوشيوس» أى مركز مرموق فى بلاطه . لقد كانت الرقابة المطلقة أو النفى المطلق هما القطبان اللذان استمرت حياته العامة فى التنقل بينهما . ولا يمكننا أن نلوم تلاميذه فى فقدهم الثقة فى معلمهم بين الحين والآخر خاصة تحت قدح أو تعنيف المعتدين والنساك الذين كانوا كثيراً مايلتقون بهم فى طريق تنقلاتهم . فلقد قال ناسك طاعن فى السن لـ «تزو – لو» : «أليس أفضل من اتباع رجل يهجر هذه الولاية وتلك ، أن تتبعوا من ينسحبون من العالم بأسره؟» قد تبدو نصيحة معقولة ، ولكن فى نظر «كنفوشيوس» إن يأس وقنوط البشر لا يزال أعظم الخطايا ، كما أنه لم يخالجه شعور بأن حياته المتنقلة كانت كلها بلا فائدة . والعالم اليوم يعرفه على أنه حكيم له شخصية وعزيمة جديرتان بالاعتبار ، كان فى استطاعة الحكومات أن تنفيه ولكن لم يكن فى استطاعتها أن تسكته ، وكان نبذ الأمراء له تأنيباً صريحاً لعناد البشر . ولقد كان مواطنو «كنفوشيوس» يجهلون أن شخصية على درجة مماثلة من الحكمة كانت تلقى معاملة أسوأ من المعاملة التى كان يلقاها «كنفوشيوس» ، فى مدينة أثينا المستقلة ، كانت هذه

الشخصية هى شخصية « سقراط » ، الذى لم يسند إليه منصب عام ، اللهم إلا فترة قصيرة ، ولكنه عند محاكمته طالب بحقه كرجل حكيم له مشاعر عامة ، فى أن يعوله الشعب . فأودع السجن شهراً ، ليكون عبرة ، ثم اقتصاداً فى نفقات إقامته ، دسوا له السم .

الاعتراف به والتقاعد :

برغم مااشتهر به الشرق من فظاظة ، فإنه كان يميل إلى أن يكون أقل عنفاً مع قديسيه وحكمائه ، من الغرب ، الذى يكاد يكون سِجِلّه أسود فى هذا المجال . ولقد كان أعظم المستبدين الشرقيين جنوناً بالسلطة يكفون أيديهم عندما يواجههم قديس . ولقد أبقى « كروسس Croesus » على حياة قلة من منافسيه ، بل أبقى على حياة « سولونSolon» كما أبقى « بنختنصر Nebuchadnezzar » على حياة « إرمياJeremiah» ، فى حين لقى « سقراط » حتفه على أيدى مَنْ يدين العالم الغربى لهم بأعظم المثل الثقافية ، كما صُلب المسيح على يد مَنْ ندين لهم بأسمى مفاهيم القانون . وكثير من الطغاة المحليين فى الصين كانوا ينظرون إلى « كنفوشيوس » على أنه خطر يهدد نفوذهم أو عقبة تعوق استمتاعهم بمساوئ الظلم والاستبداد ، ولكن لم يكن يجرؤ أى حاكم أن يلقى القبض عليه أو أن يقطع رأسه ، بالرغم من أن الوزراء الحقودين كثيراً ماحاولوا أن يعرِّضوه للسخرية ؟ ومع ذلك ، فقد حظى « كنفوشيوس » فى النهاية بقدر من الاعتراف به ، كان أكثره أثراً ذلك التقدير الذى لقيه من الولاية التى كانت مسقط رأسه ، ولاية « لو Lu » فلقد ضاق الدوق « تنج » ذرعاً ، منذ أمد طويل ، بالفتيات الراقصات ، وغير ذلك من مظاهر الأبهة ، وآل العرش من بعده إلى الدوق « جاى Gae» . فبعث الأخير إلى الفيلسوف الذى كان فى التاسعة والستين من عمره ، ببعض الهدايا وبدعوة للعودة إلى ولايته . اشتدت غبطة « كنفوشيوس » ، ولكنه أوضح فى قبوله للدعوة أن أيام قُوَّته قد ولت وأنه سيقدِّم النصح ويدرس ويستريح . ومن أرادوا أن ينصتوا له يمكنهم أن يفعلوا ذلك . لقد كان إنساناً مُتْعَباً ، فضلاً عن أنه كان متقاعداً .

لقد تمتع بخمس سنوات من حياة المجد والبحث فى « لو » قبل وفاته ، وكان الوزراء يستشيرونه ولكنهم لم يسعوا لإقلاق راحته . لقد كان قادراً عندئذ على أن يقوم بعمل أرجىء طويلاً حتى كاد يفقد الأمل فى تحقيقه ، أعنى تحرير كتابه الشهير « الكلاسيكيات Classics » كما أنه كرس وقته لكتابة تاريخ شعبه وإعادة تصنيف القصائد التقليدية وإعادة ترتيب موسيقى الاحتفالات الرسمية .

وذات صباح ، شوهد الرجل العجوز ، وكان قد بلغ وقتها الثالثة والسبعين ، وهو ينهض من متكئه بصعوبة أكثر من المعتاد ، ويمشى متثاقلاً خارجاً من داره ، وهو يتغنى بأغنية حزينة ، وكانت الكلمات كلمات قصيدة يوليها محبة خاصة ، ولكن تلاميذه توقعوا فى هذه الحالة معنى تشاؤميًّا فيها ، وكانت كلمات الأغنية التى تغنى بها هى :

« لابد للجبل العظيم من أن ينهدم ،
ولابد للدعامة القوية من أن تتكسر ،
ولابد للرجل الحكيم من أن يذبل كما يذبل النبات . » .

ثم أعطى بعض التوجيهات عن كيفية دفن جسده ، وكان حريصاً على تحديد الطقوس التى يجب أن تصاحب جنازته . أما عن أن عقله لابد وأنه كان يسهب فى تفاصيل الاحتفالات الرسمية ، فقد كان أمراً تميز به ، ولكن كلماته الأخيرة لتلاميذه ، كانت هى أن ينتهجوا رسالته ، ولعله كان يتحدث بالصيغة التى كان يتحدث بها « الأنبياء » فى كل عصر : « لن يظهر حاكم ذكى ، ليس هناك واحد فى الإمبراطورية سيتخذنى معلماً له . لقد حان أجلى لأموت . ».وعاد إلى متكئه ، ورقد فيه لمدة أسبوع ، ثم مات دون أن يتفوه بكلمة أخرى ، فدفنه تلاميذه منفذين تعليماته بكل دقة ، وبنوا أكواخاً صغيرة بالقرب من مقبرته ، وقد أعدوا العدة ليحزنوا على وفاته لعدة سنوات . ولقد قيل إن « تزى – كونج » وكان أشد أتباعه تعلقا به ، بقى فى البقعة التى دفن فيها «كنفوشيوس» لمدة بلغت ست سنوات . وقد بلغ حفدة «كنفوشيوس» ، بمضى الوقت ، شأناً عظيماً ، وتقلدوا مناصب الدوقات ، وما زالت عائلته تعيش فى رغد من العيش فى الصين حتى اليوم .

ونستطيع أن نعرف القدر الكبير عن «كنفوشيوس» ، الرجل ، من أقواله المسجلة فى كتاب « المقتطفات الأدبية Analects » ، وهذه الأقوال سديدة ، حازمة ، وأحياناً تهكمية فى أبسط صورة ، ولم تكن عاطفية قط . أما عن أنه كان يُظهر عطفاً شديداً على معاناة البشرية ، فهذا مانعرفه عنه ، ولكن كان أحسن مايحبه هو أن يعبر عن عواطفه تعبيراً عمليا ، إذ لما عانى واحد من أصدقائه من خسارة شخصية ، أمر بأن يُحَّل وثاق جواد من جياد عربته ويُهْدَى إلى الأسرة الحزينة ، وقال مفسراً : « إننى أكره فكرة ألا تكون دموعى يعقبها تعاطف عملى. ».كان ذلك هو موقفه الطبيعى . ومن مختلف الأوصاف التى وصلتنا عنه ، وكذلك من الصورة الجليلة فى

المعبد الذى شُيِّد فى مسقط رأسه ، يمكننا أن نقررأنه كان قوى العقل والجسد معاً . والواقع أنه ، مامن رجل له ضعف بنيته أو ضعف عزيمته كان فى استطاعته أن يحتمل محن فترات نفيه العديدة . لقد كان تحولاً غريباً للقدر أن الفيلسوف الشديد التمسك بأفكار السلوك العام وحسن الصورة والسماحة الاجتماعية ، يضطر لأن يقضى الجانب الأكبر من حياته فى البرية مجرداً من المؤثرات الحضارية ، ويُحكم عليه بأنه شخص انعزالى ، يرجو بلا جدوى أن يوظف لأى غرض من الأغراض . ولعله من سخرية القدر أيضاً ، ذكر حقيقة أن « لاو – تزى » الذى كان مشهوراً عنه أنه كان يزدرى الحياة المدنية ، كان يعيش ، عندما التقى به « كنفوشيوس » ، فى مدينة من أكبر مدن الصين . ولقد اتهم « كنفوشيوس » ، بالرغم من شهادة ألصق أصدقائه به ، بالأثرة المتعاليةOverweening Egoism. ولا شك أنه قد تفوه ببعض عبارات ، إن لم تكن فيها أثرة تماماً ، فإنه لا يرقى أدنى شك فى أنها تحمل معنى التواضع . لقد قال فى مناسبة من المناسبات : « فى قرية صغيرة فيها عشر أسر قد يوجد واحد شريف ومخلص مثلى ، ولكن ليس شديد الولع بالعلم مثلى » وأكثرما اشتُهِر عنه قوله : « فى سن الخامسة عشرة قررتُ أن أعرف الحكمة ، وفى سن الثلاثين ، اتخذتُ موقفاً حازماً ، وفى سن الأربعين كنتُ لا أزال سهل الانقياد ، وفى سن السبعين كان فى استطاعتى أن أتبع رغبات قلبى دون أن أتجاوز الصواب » . ويمكننا فقط أن نؤكد أنه إذا كان إنسان ما قد بلغ فى الواقع مثل هذه الدرجة من الكمال فإنه يحق له أن يقول هذا . واليوم هناك حوالى ٥٥٠ مليون يؤمنون بأنه كان على حق .

الكلاسيكيات "The "Classics :

تعرف المؤلفات التى تناولت القوانين الكنسية للعقيدة الكنفوشيوسية – لأننا يمكن أن ندعوها كذلك بحق – تعرف باسم الكلاسيكيات التسع ، خمس منها المسماة خماسيات تشنج The Five Ching، من المحتمل أن تكون تأليفه هو نفسه ، سواء بمقدرته كمؤلف أو كمحرر ، وهى تتألف من : « لى – تشى Li-Chi » أو كتاب الشعائر Book of Rites ، وهو جامع لقواعد المواءمة ، مخطط لتلقين السلوك الروحى فضلاً عن السلوك الطبيعى . والثانى تعليق على الكتاب الخطير الذى سبق أن أشرنا إليه ، أعنى « آى – تشنج I-Ching » أو كتاب التغيرات Book of Changes ، والثالث كتاب « شى – تشنج Shi-Ching » أو كتاب القصائد Book of Odes ، قطعة أخرى من عمل المحرر : هـذه القصائد

برغم جمالها فى ذاتها كانت ذات هدف تهذيبى واضح . والرابع والخامس ، كتاب « تشون تشيو chun chiu » أو تأريخات الربيع والخريف Spring and Autumn Annals، وكتاب « شو – تشنج Shu-Ching » أو كتاب التاريخ Book of History، وقد تناول ماضى ولاية « لو Lu » والإمبراطورية الصينية ، على اعتبار أنها تسجيل ملهم البطولة والنظام ، ومن ثم كان داحضاً لما نسب إليها من فوضى . ويكفى هذا بالنسبة للعمل المباشر الذى قام به « كنفوشيوس » . أما عن الكلاسيكيات الأربع الباقية ، فهى مؤلفات ، بالرغم من أنها بوحى من « المعلم » ، إلا أنه قد دونها تلاميذه ، بقدر ما وصل إلينا . وأشهر هذه المؤلفات الأربعة طُرًّا هى : المقتطفات الأدبية Analects (أو « شذرات Fragments ») التى سبق أن أشرنا إليها . وهذه الأقوال المأثورة ، تحمل طابع شخصية وحيدة ، ومن المحتمل أن تكون سجلا دقيقاً لما قاله « المعلم » كما تذكر ذلك مذكرات بوزويل « Notes of Boswell.. والكتاب التالى ، الذى عنوانه « تا – هسوه Ta-Hsueh » أو العلم العظيم The Great Learning والذى يعتبره كثيرون من طلاب العلم أوضح ملخص للعقيدة الكنفوشيوسية ، فإنه من المحتمل أن تكون أجزاء منه ، فعلاً ، قد كتبها « كنفوشيوس » بنفسه . ويعتبر حفيد الحكيم ، المدعو « كونج تشى Kung Chi» مؤلف الكتاب الثالث الذى عنوانه « تشونج يونج The Chung Yung » أو مبدأ القصد الثابت Doctrine of the Steadfast Mean أما الكتاب الأخير فهو كتاب منشيوس Book of Mencius الذى لُقّب بأعظم تلميذ من تلاميذ « كنفوشيوس » .

وفى كتاب « العلم العظيم » ترجع الأخلاق ، الكنفوشيوسية إلى أصولها المجردة . ومن المحتمل أن تكون هناك حكمة أكثر تركيزاً ، وصدقاً أكثر ثباتاً ، فى هذا المؤلف الخطير عما يوجد فى أى مؤلف فلسفى آخر ، حتى لو كان حكمة من نوع دنيوى . ولربما استبعده « لاو – تزى » على اعتبار أنه حماقة ، وقد يكون ذلك صحيحاً فيما يتصل بعنوانه الجزىء يقول الكتاب « للأشياء أصولها وفروعها ، وللأمور نهايتها وبدايتها ، وفى معرفة ما هو الأول وما هو الأخير سيقود المرء إلى الاقتراب مما يُعلَّم فى كتاب « العلم العظيم » . ونحاط علما بعد ذلك كيف أن القدماء شرعوا فى تنظيم ممالكهم وفقاً للفضيلة . ولتحقيق راحة الجماهير اكتشفوا أن من واجبهم أولا ، أن يكونوا قدوة صالحة فى حياتهم الأسرية ، وقد أدى هذا بهم ، بدوره ، إلى نوع من البحث والإستقصاء فى نفوسهم الذاتية ، بالغين الذروة فى إدراك أنهم يجب أن يتوسعوا حتى

يصلوا إلى أقصى درجة لديهم من المعرفة حتى تتغلغل فى قلب « الواقع » أو « طبيعة الأشياء » . بمعنى آخر ، الحكم الصالح لا يمكن بلوغه عن طريق فرض تعليمات خارجية ؛ بل على العكس من ذلك ، يمكن بلوغه فقط عن طريق كل فرد ، الحاكم فضلا عن المحكوم ، مشتركين فى التهذيب الذاتى طبقاً للقانون الطبيعى للحياة . قد يقول بعضهم : طموح غامض ، لأنه ما هو عمل هذا القانون الطبيعى للحياة ؟ هذا السؤال كان كنفوشيوس أكثر إحجاماً عن الإجابة عنه عن «لاو – تزى» الذى قال إن القانون هو «الطاو» أو عن « هسن ـ تزى ـ Hsun-Tze » الذى قال إنه لا وجود لمثل هذا القانون ، بيد أن « كنفوشيوس » ، عندما أصطر للإجابة عن هذا السؤال قال بما لا يدع مجالاً للشك فى ذهن أى إنسان إنه على شاكلة العظماء الذين سبقوه ، وأنه كان رسولاً للرابطة المقدسة : « إننى أسعى إلى الوحدة ، لتسود الجميع » ، ذكرها مرة فى حديث بدون مناسبة عن لا شىء ، وإن كانت فى الواقع عن كل شىء . والواقعية التى تحدث عنها لم تكن أقل واقعية لكونها بعيدة عن منال غالبية البشر . يجب أن نتذكر أنه ، طبقاً لاعترافه الشخصى عندما كان فى سن الخمسين من عمره لم يكن قد فهم بعد « قوانين السماء » .

ولو فتحنا كتاباً مدرسيا حديثاً عن الأخلاق (ومن المؤكد أنه لن يكون أى فرد على استعداد لأن يفتحه مالم يكن مضطراً لأن يجتاز اختباراً) لوجد أن الإنسان نفسه فى عالم مختلف تمام الاختلاف عن العالم الذى عاش فيه الحكماء العظام . فى المقام الأول ، معظم الكتب المدرسية من هذا النوع تتناول بصورة خاصة بحثاً فى معنى عبارات مثل الصواب والخير والواجب . . إلخ : متظاهرة بنوع من التغافل الأكاديمى لما يمكن أن تحمله هذه الأفكار فى الواقع ، وكثيراً ماتصل بالفعل إلى لا نتيجة على الإطلاق . لقد صار مفهوم السلوك البشرى كمفهوم له علاقة بطريقة ما بالعالم الذى يعيش فيه الإنسان ، فعل فاضل ذلك الذى يتناسق مع غرض من الأغراض المقدسة ، قد صار مغايراً تماماً للعقل الأكاديمى الغربى حتى إنه ليبدو بعيداً عن الصواب ، ومع ذلك ، فمثل هذه هى رسالة كل زعماء البشرية الروحانيين ، بالرغم من صعوبة فك طلاسمها أحياناً ، كما يبدو أن الحضارات السابقة لم تهب المرء هذا الوضع مالم يف بما عاهد بإتاحة مثل هذا التنور . وكانت آخر شخصية أخلاقية عظيمة بعد سبينوزا Spinoza تبشر بنوع من العالمية فى الأخلاق هى شخصية « كانط » ، ولكن عبارة كانط التى تقول إننا يجب أن « نعمل حتى يصير المثل الأعلى لسلوكنا قانوناً عالميا » ، إجراء

تجريدى شاحب ، ذاع وانتشر دون الإشارة إلى غرض الطبيعة والعالم الذى يسمو على الطبيعة[٧] . لقد علّق «كنفوشيوس» تعليقاً مماثلاً تماماً لتعليق «كانط» إذ قال : «يتصرف الإنسان الأسمى لكى يجعل سلوكه فى كل الأجيال قانوناً عالميا» ولكنه تفوه بهذه الحكمة ضد خلفية الحكمة التقليدية التى كان يعمل جاهداً لإبقائها حية. ولم يكن عبثاً أن أنفق السنوات الأخيرة من حياته فى دراسة أقدم عمل من أعمال الفكر الصينى الميتافيزيقى ، وهو كتاب التغيرات . وكتاب «آى – تشنج» كما سبق أن رأينا ، هو مؤلَّف عن «قوانين السماء» ، وإذا كانت هذه القوانين ، كما هى مفسرة ، تبدو غامضة ، فإنه لم يدَّع أحد قبل أو منذ ذلك الوقت أنها غير ذلك . وماهو مهم هو الاعتراف بعدم توقف عملها وإن كان غيرمدرك. وكما نقرأ فى كتاب «مبدأ القصد الثابت[٨]» ، فإن مامنحته السماء هو مايسمى «الطبيعة». والمطابقة على هذه الطبيعة يدعى «طريق الواجب» . ويعلَّم الموضوع عن طريق التكرار حتى يتخذ مظهراً من مظاهر الابتذال Platitude ولكن فى الواقع أنها الحقيقة التى يحسب لها حساب فوق كل ماعداها . «لو نشرتها لملأت الكون ولو طويتها لارتدت ورقدت مختبئة فى الخفاء». والابتذال حقيقة ترتضى البشرية أن تطويها وتخفيها . والابتذال نتيجة وفاق بين القصور الذاتى البشرى Human Inertia وبين التعبير بالكلمات Verbalism.

التوافق والاعتدال :

على شاكلة البوذا الذى برهنت عقيدته على أنها أقوى منافس لمبدأ السلوك العام Decorum والاعتدال Mean ، كان «كنفوشيوس» على دراية بضرورة التوافق لدرجة بلغت المغالاة فى التبسيط . لقد كان يبشر عامة الشعب بمبدأ يمكن أن يُدْرَك دون الرجوع إلى الحيل الفلسفية . لقد سمح لقصور معظم الأشخاص : تفهم الحقائق التى هى خارج نطاق خبرتهم المباشرة . «لو أن المرء فى تكريسه نفسه ، فى جدية ، لواجبات الناس ، وفى احترامه للكائنات الروحية ، حرص على الابتعاد عنها – لكانت هذه هى الحكمة .» وإنها لكذلك فى الواقع ،

---

(٧) ربما يرغب القارئ فى تعديل هذه الملاحظة ، إلى حد ما ، على ضوء إشارتنا إلى «كانط» فى فقرة عن «شانكارا» بالفصل السادس من هذا الكتاب .

(٨) ترجم إيزرا باوند Erza Pound اسم هذا الكتاب ترجمة أكثر وضوحاً فى هذه العبارة : «مبدأ المحور الثابت . "The Doctrine of the unwobbling Pivor

لو أخذت فى اعتبارك قدر البشرية . وبنفس هدف الحفاظ على المدى الطبيعى للخبرة ، أكد «كنفوشيوس» أهمية فضيلة التضامن الأسرى Family Solidarity وبصورة خاصة طاعة الأبناء. لقد رأى فى الأسرة : الوحدة الطبيعية لكلا النظام والاستمرار ، إذ فيها تصبح الفضيلة ثابتة ويصبح الواجب حقيقة : وصاحب النظرية التجريدية قد يختزل الأخلاق إلى بضع قوانين مناسبة : إذ ستستمر الإنسانية بوجه عام فى احترام تعاليم الحكماء ، حتى لو كانت أقرب إلى قطع العلاقات الودية منها إلى مراعاتها . لقد تغلغلت التعاليم الكنفوشيوسية بعمق فى العقلية الصينية حتى اضطرت كل ماعداها من مبادئ ، بنوع من التهكم والسخرية ، إلى التوافق معها . وعندما يتحدث المؤرخون وواضعو القانون الدولى عن العبث فى محاولة قهر أو إذلال الشعب الصينى ، يبدو أنهم يأخذون فى اعتبارهم أحياناً مجرد اتساع رقعة البلاد . والاستراتيجيون فى حديثهم عن علمٍ ، عن «الخطوط الطويلة للاتصال» يظنون أنهم بهذا قد سووا الأمر ، ولكن صعوبة «قهر» شعب كالصينيين (إذا كانت فكرة القهر لاتزال تحتفظ بأى معنى) هى صعوبة تحطيم قوة الأخلاق المتأصلة بعمق والتى تكاد تكون لا شعورية . «والخطوط الطويلة للاتصال» التى تلعب دوراً حيويا فى مثل هذه العملية هى وسائل الاتصال التى انتقل عن طريقها مبدأ واقعى عن المسئولية الاجتماعية على مدى ألفين وخمسمائة سنة . حَطِّم ذلك ، وستكون قد حققت نصراً لا مثيل له فى التاريخ ، ولكن مع ذلك ، علينا أن نرى ما إذا لم تكن قد حطَّمتَك بعدُ ، فى اللحظة التى تبدو فيها «مسالمتك» أو «اشتراكيتك» تامة .

بعد وفاة «كنفوشيوس» ، حققت تعاليمه نجاحاً يفوق التوقعات المتواضعة التى كان يتوقعها مؤسسها . ياله من نجاح عظيم يمكن أن يكون خير شاهد تشهده أعنف حركات المعارضة . ولما أخذت مبادئ «الاعتدال» و «الحكمة الذهبية» (عامل الناس بمثل ماتحب أن يعاملوك به) والمثل الأعلى لطاعة الأبناء ، تتغلغل فى وعى عامة الشعب ، مالبثت أن تشكلت بالتدريج أرستوقراطية جديدة من طلاب العلم الكنفوشيوسيين . ولم يكن طلاب العلم هؤلاء ، بالضرورة رجالاً متقاعدين أو لهم نزعة أشبه بالنساك : لقد كان دائماً ماثلاً أمامهم المثل الأعلى للملك الفيلسوف أو بالأحرى ، الحكيم المثقف . وبالمثل ، فإنه مثلما أسس «المعلم» مدرسة ، سار على هذا النهج رجال من ذوى الشعور العام فى جميع أرجاء البلاد ، مثل هذه المدارس ، بالرغم من أنها كانت كثيراً ماتخفض العلوم الحية إلى أنماط شكلية بصورة غير معقولة ، إلا أنها

أبقت على الفن والتعلم ، ومن ثم ، الحضارة ، عبر قرون من الفوضى والإهمال . لأن الحضارة ، التى تكون فى أى وقت على الإطلاق مطلباً عاما عظيماً ، مجبرة فى حقب مختلفة على أن تعرب عن رضاها عن تعليم ذاتها بذاتها ، تماماً مثلما كان « كنفوشيوس » المنفى يُبقى على روحه المعنوية بترديد القصائد من أجل تسليته الخاصة ، كما كان يعزف على العود أيضاً . . وفى الوقت الذى اتبع فيه عدد من الحكام مبدأ كنفوشيوسياً اعتباريًّا على أنه العقيدة الرسمية لولايتهم ، إذ بغيرهم ، على شاكلة دوق « تنج » الشديد الحساسية قد تحللوا من التزامهم بأن يجعلوا من انفسهم قدوة حسنة وفاضلة لرعاياهم . لقد اكتفوا بأن يعلنوا قوانين صارمة ويعملوا على تنفيذها بالقوة على الآخرين . ورغبة من الإمبراطور « شيه هوانج – تى Shih Huang-Ti » (٢٢١ – ٢١١ ق .م .) فى إيضاح أن التاريخ بدأ به هو نفسه ، واستنكاراً منه لتأثره بمبادئ « كنفوشيوس » (فضلاً عن كل المبادئ الأخرى) أمر بإقامة « حريق ضخم للكتب » وكان الإجراء رمزيًّا إلى حد بعيد ، كمحاولة للتخريب العلمى ، ولكنها كانت بلا جدوى من ورائها ، إذ أن كثيراً من طالبى العلم كانوا يحفظون كتب « كنفوشيوس » عن ظهر قلب . أما غيرهم ، وكانوا بعملهم يعرضون أنفسهم لخطر جسيم ، فقد أخفوا مجموعة ورق الخيزران الممزق تحدياً منهم لهذا العهد وانتظاراً لعهد يكون أكثر تنوراً . وبعد أن حكم « شيه هوانج – تى » لفترة قصيرة ، خلفه ، – لحسن الحظ – حاكم عادل كان ينتظره طلاب العلم وهو « ووتى Wu Ti » وكرد فعل ، أعلن « ووتى » فى سنة ١٣٦ ق .م . أن المذهب الكنفوشيوسى هو دين الدولة الرسمى ، وبهذا ارتفعت مكانة « المعلم » إلى درجة القدسية .

وبمضى الزمن ، أخذت الكنفوشيوسية فى الانتشار فى الأقطار الأخرى ، ثم مارست الطاوية والبوذية من بعدها نفوذاً عميقاً على العقل الصينى ، ولكن فى الوقت الذى طردت فيه البوذية من الهند على يد مبدأ أكثر عداء ، فإن انتشارها فى أرجاء الصين لم يُضعف بنفس القدر شوكة الكنفوشيوسية ، التى برهنت على أنها فلسفة أكثر « طبيعية » وأكثر تجانساً ، ومن الصعب اجتثاثها ، وأنها ستدوم أكثر من أية عقيدة تسعى إلى التأصل فى أذهان ذلك الشعب الذى هو أكثر تمسكاً بالأخلاق لأنه كنفوشيوسى قبل كل شىء .

الحكمة الأصيلة والزائفة :

إن دراسة مركزة للفلسفة الهندية والصينية قد تؤدى بالمرء ، لو نظر إليها خارج نطاق سردها

التاريخى ، إلى افتراض أن هندوستان والمملكة الوسطى[٩] قد احتشدتا بصغار الأمراء ويطن حولهم الفلاسفة كما لو كانوا ذباب الدواب ، ساعين للتأثير فى أمور الدولة ، مقدمين نصائح بلا مقابل ، ولا يضيعون أية فرصة لتقديم أية موعظة وأى تحذير . ويحتاج الانطباع إلى أن يُصحَّح بالتفكر فى حجم البلاد ، وانعدام المواصلات ، والمجالات الصغيرة نسبيًّا التى يمكن أن يمارس فيها الحكم الفعال . ومع ذلك ، فلو هيئت لنا مثل هذه الظروف ، فلن تكون لنا حيلة من أن تصدمنا مرة أخرى حقيقة ، تخالف حقيقة أزمنتنا ، هى أن خمسة القرون السابقة لمولد المسيح عليه السلام قد شهدت ظهور فلسفات عالمية أكثر مما شهدته كافة السنوات التى أعقبت ميلاده . وفى كتاب صدر مؤخراً، حاول البروفسور كارل جاسبرز Prof Karl Jaspers أن يوضح أن المعاصرة Contemporaneity إذا استخدمنا هذه العبارة بتوسع إلى حد ما ، بين شخصيات أمثال « بوذا » و« كنفوشيوس » و« لاو – تزى » و « زارادشت » و « أشعيا الثانى » ، لتشير إلى حركة فكرية عامة لها علاقتها فى أرجاء العالم الشرقى . وإذا كان الأمر كذلك ، فإن مثل هذه الحركة لم تتكرر قط ، ولا يحتمل قط أن تفسر . وهناك احتمال واحد فقط ، من ناحية أخرى ، جعلته دراسة ماقبل التاريخ أكثر معقولية عما كان يعتبر منذ قرن مضى . أعنى أن العالم القديم ربما كان أقل عزلة مما نفترضه أحياناً . وقد يكون السفر صعباً ، عرضة للمخاطر ، وفوق كل ذلك بطيئاً ، ولكن المسافات الشاسعة كان يغطيها كلا الأفراد والجماعات . وربما كان البطء ميزة ؛ والسفر العصرى سريع جدًّا ، وفضلاً عن هذا ، فلقد كانت الرحلة الطويلة شيئاً يمكن تحقيقه على مراحل . لقد كانت تصل إلى مايدعو للإقامة فى سلسلة من المحطات على طول الطريق لم يكن قد سبق تحديدها من قبل دائماً . لم تكن الرحلة تشمل أكثر من تركك لدارك ونقلك له ، أو على الأقل ، إقامة مقارّ جديدة ولم تكن هذه المقارّ المؤقتة بالضرورة مؤقتة كخيام قبيلة من قبائل البدو ، فكثير من القصور التى بناها الصليبيون فى أرجاء الشرق الأوسط ، إذا أخذنا نموذجاً متأخراً من التاريخ الأوربى ، هى صالحة لآلاف سنين أخرى إذا استبعدنا احتمال التخريب العمدى . « وقهر المسافة » – وهو انتصار لا يبلغ عمره فى القدم قرنين من الزمان – ربما شهد من وجهة نظر سيكولوجية تأثيراً أقل ، على جمع شمل الرجل الصالح والأفكار الصالحة مما كان يرجوه رواد النقل والطيران

---

(٩) اعنى تشونج كيو Chung-kuo وكانت الصين يطلق عليها أحيانا اسم تشونج – هوا – كيو Chung-hwa-kuo أو المملكة الزهرية الوسطى . Middle Flowery Kingdom

ورسل التجارة الحرة أمثال كوبدن Cobden. وإن ماقهرته المسافة لم يكن جهلا بل تفكيراً ناضجاً ، تماماً مثلما أن اختراع الآلة الكاتبة قد قصد به أننا نكتب الآن ستة نسخ من خطاب بدلاً من نسخة واحدة . وباختصار ، فلعل السفر فى العصر السابق لعصر الصناعة كانت له فاعليته لجهاز إرسال فى الفضاء مثلما كان التراث الشفوى حافظاً فعالاً للحضارة فى زمنه .

ويستتبع هذا أنه إذا كان تأثير الفلاسفة الفرديين مغالى فيه أحيانا ، فإننا يجب ألا نقع فى الخطأ المضاد ، خطأ الخط من قدر مثل هذا التأثير. نحن نعلم أنه فى الهند والصين كانت الفلسفة تستحق الاعتبار ، وكان لها احترامها ، لأنه كان ينفع الناس التظاهر بالمقدرة الفلسفية حتى لو لم يوهبوها ، اللهم إلا فى صورة زائفة جدًّا . وبالرغم من أن الحكام العصريين ، خاصة فى أزمنة الحرب ، قد يستشيرون أحياناً السيكولوجيين فإنه لم يعرف عن حاكم غربى قط أنه قد وضع نفسه تحت وصاية فيلسوف عظيم . والولع الحديث بالإدارة الذى ينتج عنه تكوين لجان المستشارين فى المسائل الفنية ، قد أخفى تماماً المسألة التى هى أساسية أكثر ، لما ينبغى أن تكون عليه الحكومة الصالحة . وفى القرون التى أعقبت وفاة «كنفوشيوس» ، كان المجتمع الصينى أكثر تأثراً برجال يماثلون فى مناهجهم السفسطائيين الإغريق ، من يسمون بالجدليين وبالمنطقيين (وكانت مدارسهم تسمى على التوالى : «بين تشى Pien Che» و«منج تشيا Ming Chia») ولم يكن هؤلاء الرجال جميعهم دجالين بالضرورة كما أن رجال الإعلان العصريين عندنا ليسوا جميعهم كاذبين ؛ ولكن لما كانوا قد أقاموا من أنفسهم مُصَدِّرين للحكمة وخبراء فى الجدل ، كانوا مضطرين للادعاء بالعلم بكل الأمور Omniscience فى حين أنهم ، لو كانوا زعماء روحيين أصليين ، لكانوا أول من دحضه وأنكره . وإذا ما أنت حوَّلتَ الفلسفة مرة إلى عمل ، لتوقَّف هدفك عن أن يكون تعقُّباً للحقيقة أو إنجازاً لحكمة ، وتصبح الفلسفة بالأحرى تمسكاً بالعادات والتقاليد . ومثل هذه الفلسفة التجارية تنهض دليلاً مقنعاً على المجد الذى كانت تتمتع به الحكمة . والعالم الغربى يميل إلى أن يغدق على الرخاء رفعة شأن مماثلة بالرغم من احتجاج الكنائس الرقيق .

وكان من بين الحكماء الذين جذبتهم مدينة «لو-يانج Lo-Yang» بعض من كادوا يكونون أكثر امتثالاً للفكرة التقليدية للحكيم . لقد كان هناك رجال أمثال «موتى Mo Ti» (حوالى ٤٥٠ ق .م .) الذى نادى إلى جانب كونه عالماً من علماء المنطق ، بإنجيل للأخوة العالمية قائم على الاقتناع بأن الناس بطبيعتهم صالحون ، أما عن كتبه فقد قام الإمبراطور

«شيه هوانج – تى Shih Huang-ti» بحرقها باعتبارها هدامة للحكم الصالح والسلطة الصالحة . أحرقها مع ما أحرقه من أعمال «كنفوشيوس» . وكان هناك «يانج تشو Yang Chu» (حوالى ٣٩٠ ق.م.) الذى كان معارضاً لكل من «كنفوشيوس» «ومو تى» ، وكان يعتقد أنه مادامت الحياة بطبيعتها شريرة ولا هدف لها ، فيجب أن نحاول أن نستخلص من الخبرة قدر ما نستطيع من البهجة دون مراعاة لشعور الغير . لقد كان جدله الذى شرحه بصورة أكثر صراحة عن ذى قبل ، هو أن «السمعة الطيب Good Name» التى يتحدث عنها السلوكيون : بدعة ، لمن يكون نفعها ؟ لمن خُلِّفت ؟ قد يكدح المرء ويضحى ويستغرق فى الصوم والعبادة ، ويؤدى أعمالاً صالحة لاحصر لها ، هذا طيب إلى هذا الحد ، وعندما يموت ، قد يبجل كما لو كان قديساً ، وقد يبدأ الناس فى عبادته ، ولكن ماذا يفيده من كل هذه المداهنة بعد الموت ؟ فهو لا وجود له هناك لينعم به . يقول «يانج تشو» : «مثل هذه الشهرة ليست تلك التى قد يختارها الإنسان الذى يهمه ماهو واقعى . كرِّمه – إنه لا يدرى بذلك – كافئه – إنه – لا يدرى بذلك . لم تعد شهرته تساوى فى نظره أكثر من جذع شجرة أو كتلة طين» ، ومن ناحية أخرى ، قد يكون هناك أناس ، قد أتيح لهم النفوذ وأتيحت لهم الوسيلة ، يحيون حياة انغماس ذاتى متسيِّب . وبعد وفاتهم لايلحق أسماءهم إلا اللعن والشتم ، ويصيرون أنماطاً أو رموزاً على الطغيان والجشع والشهوة ، ولكن ماهى نتيجة مثل هذه السمعة السيئة عليهم ؟ لا شىء بالمرة . «وجه إليهم اللوم – إنهم لايدرون به . إن سمعتهم السيئة لا تساوى فى نظرهم أكثر من جذع شجرة أو كتلة طين» . باختصار ، مادامت السمعة الطيبة والسيئة لامعنى لها بدرجة متساوية ، فلا داعى لأن يشغل المرء نفسه فى حياته بالفضيلة الأخلاقية . والواقعية الوحيدة هى تحقيق رغبة ، هنا والآن ، ولفرد واحد وحده .

منشيوس Mencius :

فى رأى حكماء لهم إحساس أعمق بالمسئولية الأخلاقية ، كان مثل هذا الإنجيل يمثل خطراً داهماً على المجتمع . ومثل هذا المذهب المثالى الذى نادى به «مو تى» لايمكن أن يطبق دون أن يؤدى إلى فوضى . إنه المبدأ الأخلاق للمنادين بالوجودية الفردية * . وكان منشيوس أعظم

* هذه النظرية نظرية الوجودية الفردية Solipsism (وهى مؤلفة من الكلمتين اللاتينيتين : Solus بمعنى واحد ، Ipse بمعنى نفس) تعتبر أن الناس لا وجود لهم إلا فى ذهن الفرد فحسب . ومن مؤيدى هذه النظرية بركلى Berkeley وفيخته Fichte ودعاة المدرسة الفطرية Immanence School (المترجم) .

تلاميذ «كنفوشيوس» ، يعتبر عمل حياته بمثابة محاولة لمحاربين إنجيلين ، لم يجد بينهما إلا القليل للمفاضلة : كلمات «يانج تشو» و «مو تى» التى كانت تملأ العالم . لو أنك أنصت إلى أحاديث الناس عنها ، لوجدت أنهم قد تبنوا وجهات نظر الواحد أوالآخر ؛ فمبدأ «يانج» هو : «كُلٌّ لنفسه Each for himself» – وهو مبدأ لا يعترف بدواعى وجود حاكم ، أما مبدأ «مو» الذى ينادى بـ«حب الجميع بدرجة متساوية to love all equally» – فهو لايعترف بمحبة خاصة يتميز بها الأب ، وعدم الاعتراف بملك ولا بأب هو أن يكون المرء فى حالة بهيمية . وإذا لم يوقف مبدؤهما وإذا لم تشرح مبادئ «كنفوشيوس» ، فسينخدع الناس بحديثهما الملتوى ويقفل طريق الخير والصواب . . . إنه لتزعجنى هذه الأشياء وأدعو نفسى للدفاع عن مبادئ الحكماء الأوائل ومعارضة «يانج» و «مو» . .

وتوضح الفقرة السابقة صفة من الصفات البارزة عن منشيوس : رجاحة عقله ، أو ، مايمكن أن يكون الشيء نفسه ، تعقبه للـ «حكمة الذهبية The Golden Mean» ، كما نلاحظ فيه صفة أخرى ، صفة التواضع : لأن منشيوس لم يدَّع إبداعاً خاصا فيما كان يعلّمه ، وكان يسعى طوال حياته كلها إلى التعرف على مزيد من مبادئ «كنفوشيوس» الذى كان يعتبره أعظم معلم عرفه العالم . لقد كان من أصل عريق ، وكان اسمه فى الأصل «مانج هو Mang Ho» ولكن الحكومة الإمبراطورية أسمته فيما بعد «مانج – تزى Mang-Tze» الذى يعنى «مانج المعلم» . وكما ترجم الدكاترة الغربيون اسم «كونج – فو – تزى» إلى «كنفوشيوس» فكذلك ترجموا اسم «مانج – تزى» إلى «منشيوس» . ولقد ولد منشيوس فى سنة ٣٧٢ ق . م . أى بعد وفاة «كنفوشيوس» بنحو قرن من الزمان .

ولقد كان العامل المؤثر والمشكِّل لحياة منشيوس هو أمه ، التى مات عنها زوجها ، عندما كان الصبى لا يزال صغيراً جدا . وهى تعد فى التقليد الصينى أنموذجاً للأمومة ، وكان ابنها يمثل أنموذج طاعة البنوة . وتروى قصص كثيرة عن حبها ورعايتها لخير ابنها . لقد أحزنها ذات مرة أن ترى ابنها كسولاً ، فما كان منها إلا أن قطعت عن قصد خيط المكوك على حين كان يلاحظها وهى تعمل ، فتساءل عن السبب فى هذا الفعل غير المتوقع ، فشرحت له أن هذا يرمز إلى فشله شخصيا فى التركيز على دروسه ، حتى إن حياته لم تكن تتألف إلا من قطع وأجزاء غير متناسقة . وبرهن الدرس على فاعليته ، فلقد صار منشيوس طالباً حى الضمير . ولما حان الوقت سار على نهج معلمه بأن افتتح مدرسة خاصة به .

وكان العلماء الثقاة الذين استفاد منهم أعظم استفادة هم أنفسهم تلاميذ حفيد «كنفوشيوس» . وقد صمم منشيوس على الفور لا على أن يحيا فحسب وفقاً لحكمة «المعلم» بل على أن ينهج أيضاً فى حياته منهجاً مماثلاً لمنهجه . لقد عاش عمراً مديداً ، إذ توفى فى الرابعة والثمانين وقضى سنوات نشاطه فى بلاطات الأمراء متقلداً مناصب أحياناً ، وأحيانا أخرى ساعياً فقط إلى التأثير على من كانوا يتقلدون المناصب الهامة . ونحن نعلم أنه قد لقى الكثير من الإخفاق ، بالرغم من أنه لم يكن نصيبه منه أكثر من نصيب «كنفوشيوس» نفسه أو من نصيب معاصره هو نفسه ، أعنى أفلاطون . ولقد قرر فى سنه المتأخرة أن يدوِّن نتائج تأملاته وخواطره ، وهذه تشكل « الكلاسيكية » الكنفوشيوسية الرابعة التى تحمل اسمه ، كما رأينا .

ولأول وهلة ، يلاحظ أن المبدأ الأساسى لفلسفة منشيوس يحمل تشابهاً لمبدأ «مو تى» لأن منشيوس كان يؤمن بأن الطبيعة البشرية هى قلبيا خيِّرة ، ولكنه لم يشارك فى وجهة النظر الساذجة القائلة بأن الناس إذا تركوا لأنفسهم فسيفعلون تلقائيًّا ما هو صواب . إن ما تمسك به هو أن لديهم القدرة ، وهى فى متناول أيديهم ، لممارسة الخير والإحسان ولتدريب أنفسهم لتكون استجاباتهم صائبة . لقد كتب يقول : « لو تحدثنا من الناحية الواقعية ، فإنه من المحتمل أن يكون الناس خيِّرين ، وأن هذا هو ما أعنيه عندما أقول إن طبيعة الإنسان خيِّرة ، فلو صاروا أشراراً ، فليس ذلك خطأ قواهم الطبيعية . ومن ثم ، فكل الناس لديهم إحساس بالرأفة ، كما أن لديهم إحساساً بالخجل من الدناءة ، وإحساساً بالتبجيل ، وإحساساً بالصواب والخطأ . والإحساس بالرأفة مساوٍ للسلوك الفردى ، والإحساس بالخجل مساوٍ للسلوك العام ، والإحساس بالتبجيل مساو للحشمة الدينية ، والإحساس بالصواب والخطأ يساوى الحكمة » . وهو يشير إلى هذه القوى العقلية Faculties على أنها « القذائف الأربع الرقيقة four tender shoots» للطبيعة البشرية . والتعبير ملائم . ولقد وهب الإنسان بفطرته هذه الدوافع الطيبة ، ولكنها نتاجات حساسة يجب أن تُوَجَّه ويُعتنى بها ، ولكن سوء توجيهها وعدم وجود بيئة ملائمة لها سيؤديان إلى تشويهها بل وإلى تخريبها .

ولأنه كان يؤمن بأن الكائنات البشرية قادرة على تنظيم الحياة الصالحة فى المجتمع ، لم يتردد منشيوس فى الدعوة إلى أن يعزل من الأمراء من كان فى حكمه ظالماً بفطرته . لقد أعلن قائلاً : « إن الناس هم أهم عنصر فى أية أمة من الأمم ، والحاكم هو أقلهم أهمية . » والإدلاء بمثل هذه العبارات علانية يستلزم أن يكون المرء شجاعاً ، ولقد كان منشيوس غاية فى

الشجاعة . لقد ناقش الأمر مع الملوك ، فيقول مثلاً : « لنفترض أن رئيس محكمة الجنايات لم يكن فى استطاعته أن ينظم حركة الموظفين الذين تحت رئاسته ، كيف تستطيع أن تتعامل معه ؟ » فكان جواب الملك : « أطرده » ، فقال له منشيوس مرة أخرى : « وإذا لم يكن داخل حدود مملكتك الأربعة حكم صالح . ماذا تفعل ؟ ». تطلع الملك يمنة ويسرة ثم تحدث عن أمور أخرى . والمبدأ الثانى الذى اهتم به منشيوس اهتماماً كبيراً هو طاعة الأبناء لآبائهم ، الذى هو حصن التقليد الكنفوشيوسى الذى كان عليه أن يجمع شمل المجتمع الصينى لأكثر من ألفى سنة . لقد قال منشيوس : « تتجه رغبة الطفل نحو أبيه وأمه ، وعندما يصبح على وعى وإدراك بمفاتن الجمال تتجه رغبته نحو الجميلات ، وعندما تصبح له زوجة وأطفال تتجه رغبته نحوهم ، وعندما يحصل على وظيفة تتجه رغبته نحو ملكه . . . **ولكن الشخص الذى يدين بالطاعة الكبرى لأبويه حتى نهاية حياته تتجه رغبته نحو أبويه** . » .

لقد كان لكنفوشيوس ومنشيوس تأثير مستمر على الحضارة الصينية لأن مبادئهما ، بالرغم من كل مافيها من حكمة ، كانت بصورة خاصة أملاً واحداً ، قائماً على إيمان بالطبيعة البشرية . ولكن مثل هذا الإيمان يمكن الإقلال من شأنه وتعريضه للسخرية والتهكم : لأن الطبيعة البشرية يمكن أن تثار دائماً لتنتزع الثقة من ذاتها . لقد كان أعنف نقد واجهه مبدأ منشيوس هو ذلك النقد الذى وجهه إليه معاصره « هسن – تزى Hsun-Tze » الذى يعتقد أنه توفى حوالى سنة ٢٣٥ ق .م . واستناداً إلى هذا الفيلسوف فإن الطبيعة البشرية شريرة تماماً ؛ وفى الوقت الذى أشار فيه منشيوس إلى « القذائف الأربع الرقيقة » للطبيعة البشرية ، أشار « هسن – تزى » إلى أشواك عديدة ، وفوق كل شىء وجَّه الاهتمام إلى حقيقة يصعب دحضها تماماً ، وهى أن الكائنات البشرية يحركها جشع متأصل ، هو الرغبة فى السلطة والكسب . ومقابل مثل هذه الغريزة ، ما الذى غَنِمه الإحسان والشفقة ؟ لقد قال : « هناك مايخص (الطبيعة البشرية) ، حتى عند الولادة ، حب الكسب ، ولما كانت الأفعال تتفق مع هذا ، لذلك تزداد المنازعات والسرقات ، ولا يكون هناك وجود لإنكار الذات والإذعان للغير . وهناك مايخصها من حب وكراهية ، ولما كانت الأفعال تتفق مع هذه ، لذلك يظهر الفجور والفوضى ، ولا يكون هناك وجود للاستقامة والسلوك العام ، بمختلف مظاهره المنتظمة . ومن ثم ، فإنه يبدو أنه فى اتباع الطبيعة البشرية ، وفى الطاعة التامة لأحاسيسها سيؤدى ذلك بكل تأكيد إلى المنازعات والسرقات وإلى انتهاك الواجبات الخاصة بنصيب كل

فرد ، وإلى خلط كافة المزايا ، حتى تكون النتيجة حالة من الهمجية . » .

ماذا كان علاج « هسن – تزى » لهذه الحالة ؟ لم يكن لديه علاج على الإطلاق . كان لديه مجرد علاج ملطف . فالرغبات فى الكسب والتحصيل لا يمكن أبداً أن تجتث ، يمكن الإبقاء عليها داخل حدود فحسب. والقوانين ضرورية « لما أدرك الملوك القدامى الحكماء أن الطبيعة البشرية هى على هذا الشر ، وضعوا مبادئ الاستقامة والسلوك العام وشكّلوا القوانين ووضعوا التعليمات لاستقامة وتهذيب مشاعر تلك الطبيعة وتقويمها » ، وأكثر المفكرين الأوربيين شبهاً بـ « هسن – تزى » هو بلا شك « توماس هوبز Thomas Hobbes » ، الذى كان ينادى بوجهة نظر مماثلة عن الطبيعة البشرية ، ووصف نفس النوع من العلاجات لعلاج مابها من قصور أو نقص .

لشوانج – تزى Chuang-Tze :

ليس لدينا من دليل يوحى بأن « هسن – تزى » قد التقى بالفيلسوف الطاوى العظيم « تشوانج – تزى » ، ولكن الاثنين كانا متعاصرين ، وكانا يكثران التردد على نفس المحافل الأدبية ، ولكن لو كان هناك لقاء ما من مثل هذه اللقاءات ، لكان من الضرورى لنا من أن نحاط علماً به ، لأنه ربما نجم عنه صراع أكثر التهاباً ، كما نعتقد ، عن تلك اللقاءات التى كان يشترك فيها « كنفوشيوس » و « لاو – تزى » . وكان يطلق على « تشوانج – تزى » : قديس بولس العقيدة الطاوية St. Paul of the Taoist Faith والوصف صحيح ، فلقد كان عمله هو إعادة توضيح مبدأ الامتناع عن العمل Inaction فى عبارات عميقة ودقيقة معاً ، لأن « تشوانج – تزى » كان أستاذاً فى اللغة وعلى موهبة فى التصوير الشعرى . لقد ولد فى ولاية سونج Sung فى القرن الثالث ق .م . وبالرغم من أنه عرضت عليه مرات عديدة مناصب هامة إلا أنه فضّل أن يحيا حياة هادئة يدرس فيها ويتأمل . وقد أجاب على الرسل الذين أرسلهم إليه دوق « واى » ، الذى عرض عليه وظيفة « رئيس الوزراء » ، أجاب فى عبارات أكدت أن الدعوة لا يمكن أن تكرر ، إذ قال : « انصرفوا بسرعة ولا تلوثونى بوجودكم ، إننى أفضل أن أتسلى وأمتع نفسى فى بئر قذرة عن أن أكون عبداً لقواعد وقيود فى بلاط حاكم من الحكام . » ويروى عنه أنه لم يفكر فى أن يتخلى عن صيده عندما بعث إليه ملك « خو Khu » باثنين من رجاله ليعرضا عليه تولى منصب الرقابة العليا على كل حدود البلاد . وفى مجال

المقارنة، يستبين أن «كنفوشيوس» كان أشبه بطالب وظيفة طموح.

ولقد هاجم «تشوانج – تزى» فكرة الحكومة، وبصورة أشد من أستاذه «لاو – تزى» نفسه. لقد قال. «كان هناك شيء مثل تربة الجنس البشرى حرًّا، ولم يكن هناك أبداً شيء مثل حكم الجنس البشرى.» وهو يقتبس جواب «لاو – تزى» على واحد من تلاميذه، كان قد سأله كيف يمكن للناس، طبقًا لنظرية كهذه، أن يحافظوا على النظام فيما بينهم: «كن حريصاً على ألا تتدخل فى الخير الطبيعى لقلوب الناس، فقلب الإنسان قد يُجبرَ أو يُستفز. وفى كل حالة: النتيجة خطيرة. وبالرقة يمكن لأقسى القلوب أن يلين، ولكن لو حاولت أن تقطعه وتصقله – فسيتوهج مثل النار أو يتجمد كالجليد. وفى غمضة عين سيتخطى حدود البحار الأربعة. فى الراحة سكون عميق، وفى الحركة، بُعد شاسع فى السماء، لا يمكن لمزلاج أن يحجزه ولا يمكن لوثاق أن يوثقه – هكذا يكون قلب الإنسان.» والهدوء المطلق هو ماينصح به: «ارع ماهو داخل نفسك وأوقف تسرب ماهو خارجها: لأن المزيد من المعرفة نقمة.» ومن ثم ينظر إلى كل القيم التقليدية على أنها شراك وأوهام. «إن الدعوة إلى السلاح هى أحط صورة من صور الفضيلة، والثواب والعقاب أحط صورة من صور التربية، والاحتفالات والقوانين هى أحط صورة من صور الحكم، والموسيقى والملابس الأنيقة هى أحط صورة من صور السعادة، والبكاء والرثاء هما أحط صورة من صور الأسى.» والحكيم الحق، من ناحية أخرى، «يضع نفسه خارج الكون، فيما وراء الخلق كافة، حيث تتخلص نفسه من الهموم. وفى إدراكه للـ «طاو» فيه مطابقة للفضيلة. وهو يقصر الإحسان والواجب لجار الإنسان وحده. وهو يعالج الاحتفالات والموسيقى على أنها أمور عرضية. بذلك يكون عقل الإنسان الكامل فى راحة وأمان.». هل مثل هذه الحالة هى نفس تلك الحالة التى يدعوها الناس سعادة؟ يجيب تشوانج – تزى على ذلك بنعم، ولكن هناك سعادة زائفة يجب أن نحذرها، وهو يقول: «إننى أحقق بهجة حقيقية متمثلة فى الامتناع عن العمل، وهو مايعتبره العالم ألماً فادحاً». وهكذا قيل: «إن السعادة الكاملة هى فى غياب السعادة، والسمعة الحميدة الكاملة هى فى غياب السمعة الحميدة». ونحن فى هذا العالم الدنيوى الذى نعيش فيه، من المحال أن نحدد ماهو إيجابى وماهو سلبى بصورة مطلقة، ومع ذلك، فإنه يمكن تحديدها فى حالة الامتناع عن العمل. والسعادة الكاملة واستبقاء الحياة يكون السعى إليهما فقط فى الامتناع عن العمل «ويبلغ الجدل ذروته فى فقرة غاية فى

الجمال : « دعونا نتفكر : السماء لا تفعل شيئاً ، ومع ذلك فهى صافية ، والأرض لا تفعل شيئاً ومع ذلك تنعم بالراحة . ومن امتناع هذين الاثنين عن العمل ينشأ كل التعديل فى الأشياء . يا لها من شاسعة وغير محدودة ، يا لها من شاسعة ، ومع ذلك بلا صورة ! والتنوع اللانهائى للأشياء حوالينا ينجم كله عن الامتناع عن العمل ، ولذلك فقد قيل : « السماء والأرض لا تفعلان شيئاً ، ومع ذلك فليس هناك من شىء لم تنجزاه » . « ولكن بين الناس من هو الذى يمكن أن يصل إلى أن يمتنع عن العمل ؟ » .

ونجد فى مؤلَّف « تشوانج – تزى » خاصية قوية من خواص التصوف ، وهى إلى حد ما من بقايا الفكر البوذى ، ولعل إبداع وسحر « تشوانج – تزى » يكمنان فى هذا المزيج من الخيال والإدراك : « إن من يحلمون بالولائم ، يفيقون للعويل والحزن ، ومن يحلمون بالعويل والحزن يفيقون للاشتراك فى الصيد ، وبينما هم يحلمون لا يعرفون أنهم يحلمون ، بل إن بعضهم سيفسر نفس الحلم الذى يحلمونه ، وعندما يفيقون فقط يعلمون بالفعل أنه كان حلماً ، وتأتى « اليقظة الكبرى The Great Awakening » تدريجيا ، ونكتشف بعد ذلك أن هذه الحياة هى فى الواقع حلم كبير ، ويعتقد الحمقى أنهم أيقاظ الآن » . وتنتهى الفقرة بصورة تلبس التمييز بين الواقع والخيال : « حدث لى مرة أنا تشوانج – تزى ، أن حلمت بأننى كنت فراشة ، أرفرف هنا وهناك وفقاً لكل مقاصد وأغراض الفراشة ، وكنتُ على وعى فقط بتتبع خيالاتى كفراشة ، ولم أكن أعى فرديتى كإنسان ، وفجأة إذ بى أستيقظ ووجدتُ نفسى راقداً مرة أخرى . والآن ، أنا لا أعرف هل كنتُ وقتذاك رجلاً أحلم بأننى كنتُ فراشة أم هل أنا الآن فراشة أحلم بأننى إنسان . » .

ومع ذلك فيجب ألا نفترض أن « تشوانج – تزى » كان يعوزه الذكاء والدهاء أو تعوزه حتى الفكاهة . وإلى جانب الفقرات الوجدانية المتناثرة عن طبيعة « الطاو » هناك الكثير من الإدراك القاسى – صلابة هى كنفوشيوسية أو أكثر دقة ، هى صينية بالفطرة : لاحظ رد « تشوانج – تزى » على تلاميذه عندما أعربوا عن رغبتهم فى أن يقيموا له جنازة فى أحسن صورة ، قالوا له : « إننا نخشى من أن حدأة الجبانة قد تأكل جسد معلمنا » ، فقال الرجل الذى كان على فراش الموت : « فوق سطح الأرض سأكون طعاماً للحدآت ، وتحت الأرض سأكون طعاماً لصراصير الطين والنمل . لماذا يتعفن واحد ليطعم آخر ؟ » ، ولكن أى تلخيص للحكمة الصينية أفضل من ذلك الذى يمكن استخلاصه من الكلمات التى يقتبسها « تشوانج –

تزى» عن معلمه : «إن فن استبقاء الحياة يتضمن : القدرة فى إبقاء الكل فى واحد . وعدم افتقاد شىء ، وتقدير الخير والشر بدون تكهن ، ومعرفة متى نتوقف ، ومقدار ماهو كاف ، وأن نترك الآخرين وحدهم ، وأن يهتم المرء بنفسه ، وأن يكون بلا هموم وبلا معرفة—أن تكون فى الواقع كطفل» . كل الفلسفات العميقة فى العالم تقتضب فى النهاية إلى شىء مثل ذلك ، فى تناقض عنيف مع نتائج الفلسفات الزائفة . ويروى عن « لاو— تزى » أنه قد مضى ليوضح بدقة ماكان يقصده بالعيش كطفل ، إيضاحاً بلغ قمة الحكمة الصينية : « الطفل يعمل دون أن يعرف مايفعله ، ويتحرك دون أن يعرف إلى أين . جسده أشبه بقرع جاف وقلبه أشبه برماد ميت ، ومن ثم ، فإن المصير الخيِّر أو الشرير لا يجد له مكاناً فيه ، وحيثما لا يكون هناك وجود لمصاير خيرة وشريرة ، كيف يمكن أن يكون هناك وجود لمتاعب البشر؟ إن مَنْ قلوبهم فى حالة من السكينة والراحة لَيُشِعُّون إشعاعاً مقدساً ، بنوره يرون أنفسهم على حقيقتهم . وعن طريق تطوير مثل هذه الراحة فحسب يمكن للمرء الوصول إلى الثابت . ومن يجدّ الناس فى طلبهم يساعدهم الله ، ومن يجدّ الناس فى طلبهم هم عباد الله ، ومن يساعدهم الله ، هم أبناؤه المختارون .

« وفى دراسة هذا ، دراسة مالا يمكن تعلمه . وفى ممارسة هذا ، ممارسة ما لا يمكن إنجازه على الإطلاق ، وفى مناقشة هذا ، مناقشة ما لا يمكن البرهنة عليه على الإطلاق . دع المعرفة تقف عند : مالا يدركه العقل البشرى . ذلك هو الكمال . » . .

خاتمة

عبادة من لايدركه العقل البشرى :

كانت رحلتنا طويلة بالرغم من كونها سريعة نوعاً ما ، ولربما أسِف بعض القراء لطول وقفاتنا هنا وقصرها هناك ، ولربما أعرب البعض عن أسفهم ودهشتهم من أنه فى مراحل معينة من الرحلة لم نتوقف على الإطلاق ، وكنا نتمنى أن يسمح لنا حجم الكتاب بمعالجة موضوعنا فى مزيد من التفصيل المستفيض ، ولكن كان أمامنا أن نختار بين أن تخرج الدراسة فى حجمها الراهن لتكون على نسق ماسبقها من دراسة وبين عمل يصدر فى عدة مجلدات وحتى فى هذه الحالة الأخيرة لن يسلم الأمر من عدم بلوغ الكمال .

وقبل أن نختتم كتابنا ، قد يكون من المفيد أن نذكر – ولكن فى حذر – نتائج معينة : لأن القارئ الذى أوصلته قراءته إلى هذه الصفحة سيكون على إدراك بالتسلسل المستمر خلال الفصول السابقة ، وهناك ثلاثة أسئلة لها أهميتها وتسترعى انتباهنا :

أولا : ماهى الاختلافات الأساسية بين الفكر الشرقى والفكر الغربى ؟ .

ثانيا : ماالذى يدين به عالم الغرب لفكر الشرق والعكس بالعكس ؟ .

ثالثاً : إلى أى مدى يمكن أن يكون هناك « تقارب » بين عالمىْ الفكر الشرقى والغربى ، آخذين فى الاعتبار التغيرات السياسية والاقتصادية الكبرى التى تجرى فى الشرق فى الوقت الراهن ؟

منذ عشرين أو ثلاثين سنة مضت ربما بدت هذه الأسئلة ، وخاصة الأخيرة منها ، إما ثانوية أو غير ملائمة ، فلقد كان هناك اتجاه إلى الإقلال من تأثير « الفكر » إذ كان المفروض أن الناس هم نتاج ظروفهم الاقتصادية . إننا ندرك اليوم مدى خطورة مايفكر الناس فيه ؛ إذ هو المسئول عن القلق الذى يعانيه زعماء الشعوب فى صياغة الرأى العام . والعقوبات الصارمة التى يردُّ بها الديكتاتوريون على إثم « الانحراف » إلى جانب الدليل اليومى ، على أن مثل هذه الإجراءات ليست دائما فعالة ، لتبرهن ، ولو بمقاومة عنيفة ، على أن فى النفس البشرية ينبوعاً من الصحة ، وعزيمة أساسية على البحث

المستقل ، الأمر الذى يحول دون أن يتردى الجنس البشرى إلى مستوى الجبناء الحمقى.

إنها موضة العصر أن نقلل من قدر فكرة «التقدم» . لقد علّق «ويندهام لويس Wyndham Lewis فى كتابه «الزمن وإنسان الغرب Time and Western Man عن التقدم بقوله : «قد يؤدى التقدم نفسه إلى الإجهاز على التقدم» ؛ ولو تقبلنا تعريفاً محدوداً نوعاً ما عن التقدم فقد يبدو لنا فقط أن مثل هذه النبوءة من المحتمل جدًّا أن تتحقق . وفى مدى قرنين استطاع التطوير التكنيكى الفعال أن يغيِّر عالَماً ظل مبقيا على ما كان عليه لعدة آلاف من السنين . إننا نعيش اليوم ، كما لم يعش أى جيل آخر ، تحت تهديد الفناء الفجائى . وجميع المحن التى مر بها الإنسان عبر التاريخ تعد تافهة بالقياس إلى المحنة الراهنة التى نعيشها فى كل الأمور الإنسانية والكونية ؛ ومع كلٍّ فإن الإنسان يعرف فى النهاية مصيره لأنه تعلّم أن يعرف نتائج قوته .

وإزاء هذا الوضع الفريد تظهر حقيقتان طريفتان ، وكلتاهما لها علاقة مباشرة بموضوعنا . فى المقام الأول : ما عليك فقط إلا أن تسأل أى فرد آدمى عما إذا كان من رأيه أن التقدم التكنيكى العظيم فى القرنين الأخيرين قد ساعد على زيادة السعادة البشرية (وليس «مجموع السعادة البشرية» ، لأنه لا وجود لمثل هذا المجموع) وستكون إجابته «كلا» دون أن يجهد نفسه بالتفكير . وفى المقام الثانى ما عليك فقط إلا أن تسأله عما إذا كان من رأيه أن القضاء التام على الحياة البشرية قد يكون شيئاً يؤسف له ، فسيدفعه ذلك بالمثل إلى أن يجيب قائلا : «كلا» (دون أن يفكر تفكيراً عميقاً) . بمعنى آخر ، قد يبدو أن الأمر هو قضية أن معظم الناس فى تأملهم لمثل هذه الأمور تأملا سطحياً لا يفكرون تفكيراً سامياً تماماً فى حياة البشرية ، ولا يعتقدون أنه يمكن عمل الكثير لتحسينها : مثل هذا التشاؤم صحيح بالنسبة للجميع فيما عدا الصغار الذين لا ينعمون كثيراً بالحياة ذاتها ، نظراً لما يبدو معقوداً من آمال ستمنحها لهم الحياة . وقد يكون هذا هو السبب فى أن حضارتنا ، كما هو واضح قبل كل شىء فى نظمنا التربوية الحديثة ، يبدو أنها تقصد استمرار ظروف الشباب وعلى أن تُخفى بكل وسيلة من وسائل الدعاية مهزلة العصر : لأن هذا هو أسلوبها فى جعل الحياة محتملة لمخلوق لم يكن متحمساً على الإطلاق ، بصورة خاصة ، وإذا به الآن يبدأ فى إظهار ما يدل على أنه يتطلع إلى الحياة بنظرة تكاد تكون نظرة يأس وخيبة رجاء .

ومهما يمكن أن يقال عن التاريخ ، فهو ملىء بما هو غير متوقع وبما هو عرضى . والتكهنات بالمصائر تُسمع فى كل جيل وتحل بنا الشرور ولكن الشرور لا تعد دائما أكثر الأمور الوشيكة الحدوث . والعيش تحت تهديد الفناء الطبيعى ربما لا يبرهن فى مجموعه على أنه وبيل . والجشع والحب والرضا فى كل صورها أكثر احتمالا لأن تنتعش فى زمن يزداد فيه الرخاء . وعصرنا عصر فيه البشرية ، وقد تُزُوِّدت بأساليب الدمار الذاتى ، قد يُدفع بها للتحرى عن واقع قيمة ذلك الذى يوشك المرء أن ينبذه . هذا صحيح بصورة خاصة بالنسبة للإنسان الغربى الذى اضطر كما سبق أن نوهنا إلى ذلك كثيراً ، من جراء ظروف وجوده المادى ، اضطر لأن يعيش فى عزلات عديدة عن الواقعية .

لقد أثَّرت علينا التغيرات الاجتماعية التى نجمت عن الثورة الصناعية فى أوربا بضخامتهاوجدَّتها ، ولكن يجب ألا تعمينا عن غيرها من التغيرات التى حدثت فى أوربا كجزء من التوازن الطبيعى للتاريخ ، لأن الحضارة الغربية تختلف عن أية حضارة غيرها فى طابعها الديناميكى ، هذا هو الفارق الرئيسى بين الثقافة المسيحية التى امتزجت بالمثل العليا الإغريقية والرومانية وبين أية ثقافة أخرى . لقد كانت طبيعة الثقافة المسيحية ألا تعارض كثيراً عن أن تنجم عنها تغييرات اجتماعية بالرغم من أن كثيراً من هذه التغيرات كان لها اسميًّا طابع « علمانى ».لقد كانت الحركات الاجتماعية الكبرى فى القرن التاسع عشر ، مثلا ، متطفلة على المثل العليا المسيحية ، التى تبرأت منها فى حالات كثيرة . وقد نفترض أن استئصال المسيحية ، وهى فى بعض الجهات سياسة مقصودة ، سيودى بمثل هذه الحركات الاجتماعية الثورية ، على عكس اعتقاد كثير من المصلحين العلمانيين : لأن استئصال المسيحية سيحرم عَالَم الغرب من عنصر من عناصر التوتر ، بدونه من المحتمل أن يهبط المجتمع إلى مجرد مجموعات متماثلة . والمثل الأعلى الاجتماعى المسيحى كان دائماً ديناميكيًّا ، لأنه لايوائم على الإطلاق ، بل مازال أقل خضوعاً لسيادة نظام سياسى . والكنيسة والدولة ، القداسة والعلمانية ، هذان القطبان ، بدلا من استغراقهما فى الغدر بالإنجيل المسيحى ، صارا شرطين لفاعليته اجتماعيًّا . وكان الاستثناء الواضح هو الإمبراطورية البيزنطية بتكوينها الحكومى الدينى theocratic الصارم ، ولكن الإمبراطورية البيزنطية كانت تُدعى بحق الإمبراطورية الشرقية ، وكان دستورها إلى حد بعيد دستورا شرقيًّا ، لأن أساس الحضارة الشرقية هو التسلسل الطبقى

الاجتماعى الذى لم يراع فيه التطور والارتقاء .

وتبقى حقيقة أن كل العقائد العالمية الكبرى قد وفدت من الشرق ، وفى مقدمتها جميعاً المسيحية بل عندما تظهر عقيدة جديدة ، وهو كثيراً مايحدث فى أمريكا ، فإنه عادة ماتكون عناصر ومفردات العقيدة شرقية حتماً ، لأن الإنسان الغربى يحس – إن لم يكن بغير ماسبب وجيه – أن أسرار الحياة وألغازها يعرفها حق المعرفة – إن لم يكن يمارسها دائماً بصورة أفضل – أقل شرق عن أعظم عالم من علماء الغرب المتخصص فى شئون الغيبيات . ويتخذ هذا التبجيل للحكمة الشرقية ، أحياناً ، صوراً مغالى فيها . فقد أدى هذا بمدام بلافاتسكى Madame Blavatsky وكانت امرأة ذات شخصية جديرة بالاعتبار ، إلى تأليف كتب مثل « المذهب الغامض The Secred Doctrine » (١٨٨٨) و « ايزيس سافرة Isis Unveiled » ، نـددت فيها بديانة الكنائس الغربية وبصورة خاصة الكنيسة الرومانية وأيدت العودة إلى عقيدة أكثر قدماً وسحراً وغموضاً ، مستوحاة من الشرق . وقد أطلقت المؤلفة على هذه العقيدة اسم « المذهب الغامض » . إذن مشكلة المذهب الغامض هى أنه ليس فى مقدور أحد ، ما لم يكن مُعَدًّا لأن يمر بصور التعلم التى تتضمن (فى النهاية) تكلفة باهظة ، اكتشاف ماهيته . وكل عقيدة لها لُبُّها من الغموض وإلا لما استحقت اسم عقيدة ، ولكن عقيدة لها مجرد غموض هى منا : موضوع دينى جد هزلى وسخف منطق : لأنها تحاول أن تلقى ضوءاً على غموض الوجود بأن تعلن فحسب أنه غامض بطبيعته .

إن عقيدة تبشيرية كالمسيحية ، بالرغم من العداوات الوثنية التى تحيط بها ، لتهددها تهديداً خطيراً جدًّا معتقدات تحمل تشابهاً ظاهريًّا لها . وهذا هو ماحدث بالنسبة للكنيسة قديماً : إذْ فى الوقت الذى رضخ فيه البرابرة ، كان أكبر منافس للعقيدة المسيحية عقيدة أخرى ذات أصل شرقى مماثل . ودعوتها بعقيدة ربما لإعطائها تعريفاً أعظم مما تستحقه أو حتى مما هو واقعها . لأنه بالرغم من الأبحاث الهامة والاكتشافات الحديثة ، فإننا مازلنا نعرف اليسير جدًّا عن التجمع الغامض للمعتقد الذى يطلق عليه اسم « مذهب العارفين Gnosticism » وقد أسفر الكشف

الحديث شمال الأقصر فى مصر عن ثلاثة وأربعين كتاباً من كتب العارفين المقدسة ، هى اليوم تحت الدراسة والفحص بجامعة لوفين .Louvain Univ . ومن المحتمل أن تلقى ضوءاً على كثير من مظاهر هذه الصورة من صور المعتقدات ، ولذلك يجب أن نحترس فى هذه المرحلة من الحدس غير المسند . ويكاد يكون كل مانعرفه فى الوقت الراهن عن مذهب العارفين مأخوذ من نُبَذٍ كتبها أطباء مسيحيون وآباء يسوعيون يهاجمونه . هذه الهجمات المعبرة عن أقصى الحقد والضغينة ، وقلَّ أن يكون لها مثيل حتى فى التاريخ الكنسى ، لتتيح لنا تبصرة بالخطر الذى كانت تشكله أو كان من المفروض أن تشكله ، بالنسبة للمجتمعات المسيحية ، وهناك سببان من أجلها كان اهتمامنا بمذهب العارفين هنا ؛ إذ إنه يمثل فى المقام الأول ، نظاماً من العقيدة يدين بالشىء الكثير للديانات الشرقية العظيمة التى كتبت عنها ، حتى إنه يشكل نوعاً من الرابطة بين هذه المعتقدات وبين المسيحية الغربية ؛ ولأنه يمثل ، فى المقام الثانى ، نظاماً عن العقيدة مع تعديلات ملائمة ، قد انتعش ، بالرغم من أن انتعاشه كان بصورة غامضة فى كل عصر ، بما فى ذلك عصرنا . ولعل مذهب العارفين لايعدو ، فى الواقع ، أن يكون تلك « الديانة » العالمية المجردة التى كان يسعى إليها الأشخاص المحبون لخير الناس فى كل جيل من الأجيال أو أيضاً بعض العقليين الذين زايلهم الوهم والخيال كوسيلة للاتحاد الروحى للبشرية ، وقد يبرر هذا اتفاقنا ، فى بداية هذا الكتاب على تجنب أية كلمة غامضة فى تناول عقائد الشرق الراسخة .

ومذهب العارفين هو ببساطة ديانة العلم الروحانى Gnosis أو المعرفة ، إذن ماهى المعرفة التى كان يطلبها العارفون ؟ لقد كانت معرفة تفوق الإدراك — أعنى ، معرفة أوتيت لروح طاهرة . وبقدر مايمكن أن نلاحظ (بالرغم من أن العقيدة قد اتخذت صوراً كثيرة) يتمسك العارفون بأن الجسد شر طالما أنه غرق فى عالم مادى هو شر فى ذاته ، ومن ثم فإن الطريق إلى الخلاص يكمن فى عدم التجسد disincarnation ، هروب إلى دنيا الروح . مثل هذا الهروب يمكن أن يؤثر عليه فقط : نظام صارم وتطهر روحى . ولما كان تكنيك مثل هذا النظام قد برهن على صعوبته ، فإن الساعى وراء الخلاص عادة مايحتاج إلى أن يحاط علماً « بغوامض »

معينة. ومن المفروض أن عقائد مثل عقيدة الأورفية Orphism [1] كانت بمثابة مدارس تمرين لأتباع العارفين. وبالرغم من ذلك ، فإن الإبقاء على الاهتمام والشغف بإدراك روحي بحت أمر يفوق قدرة غالبية الناس وقدرة أى شخص لفترة طويلة . وفى الوقت الذى يكون فيه العقل مركّزاً على « الواحد المطلق » أو « الكل » أو « البراهمان » إذ بالعواطف وقد تجوهلت واحتُقرت ، تتجمع لتثور . وكما أن العقل فى وقت من الأوقات يحل به التعب من أفعاله ، فقد تصر أكبر هذه الغرائز على المعاملة بالمثل بصورة مروعة ؛ وفى أكثر الحالات اعتدالا ، ينحط قدر العقيدة إلى الاتجار فى السحر والعرافة (وبعض أوراق البردى الخاصة بالعارفين والتى اكتشفت حديثا تقدم دليلا على الانغماس فى هذه الأمور) : وفى أسوأ الحالات تنقل قوة الغريزة العقيدة من روحانية سامية إلى مرتع فاسد للساحرات ، ولهذا ، فقد نَبذَ مذهب العارفين ، وسيستمر فى نبذه ، مثل هذه الضلالات الدينية كالهرطقة المانيشية Manichaeism heresy والكاثارية Catharism heresy (فى مستهل العصور الوسطى) والبريسكيلية Priscillianism heresy (فى أسبانيا) ، وكالهرطقة الألبيجنسية Albigensian heresy (فى بروفانس Provence) وهرطقة بوجاميل Bogamils heresy (فى شرق أوربا) ، إلى جانب عقائد أخرى عديدة فى آسيا الصغرى وفى الشرق الأوسط . كل هذه العقائد كانت تهدف إلى أن تكون مقرونة بخبرات ضخمة ناجمة عن الرغبة المنطقية الإلهام ظاهريا ، فى استرضاء قوى الشر . والناسك المؤمن بالمطلق الذى يحمله الجو فى حاجة لأن يعود ، حتى ولو كانت عودته للتزود بالقوت فحسب ، إلى العالم الذى هرب منه ، وهو ليس بحاجة إلى أن تتملكه الدهشة من أنه

---

(١) نسبة إلى الشاعر الإغريق الأسطورى أورفيوس Orpheus الذى عاش فى القرن الثامن ق . م . وتنادى هذه العقيدة بعبادة أورفيوس والإله ديونسوس Dionysus ومن تعاليم هذه الطائفة أن نظرة العالم للفلاحين والعبيد الكادحين تتعارض مع علم الأسطورة الذى يمثل نظرة العالم للأريستوقراطية . وفى علم الأسطورة ، الحياة فى العالم الآخر تعتبر استمراراً للحياة على الأرض ، وتعتبر الروح كائناً جسدياً . . والعقيدة الأورفية تقرن الحياة فى العالم الآخر بالسعادة والحياة على الأرض بالمعاناة . ورحلة الروح فى الجسد تعتبر هبوطاً من العالم الآخر ، وأفكار هذه العقيدة تعبر عن احتجاج على تحول الإنسان إلى عبد ، إلى آلة تتكلم . والعبيد يقرنون تحرير أنفسهم بتخلص الروح من الجسد الذى هو ملك لسادتهم . ولقد كان لهذه العقيدة أكبر الأثر فى ظهور الفلسفة ، وبخاصة الفلسفة المثالية Idealism الإغريقية القديمة (المترجم) .

كلما تكرر غيابه وطال كلما صارت هذه البقعة الحقيرة فريسة للأعشاب والهوام والفساد .

وقد يكون مثيرا ، رغم مافى ذلك من خطورة ، أن نرى فى مذهب العارفين إحياء لتلك الحركة العامة للبعث الروحى التى اقترنت بالأسماء الضخمة لـ « زرادشت » و« البوذا » و« مهافيرا » و« كنفوشيوس » و« لاو–تزى » . وأما عن أن مذهب العارفين قد « انبثق من آسيا » ، فهو أمر مؤكد وهو يحمل آثاراً واضحة لتأثير البوذية فى رفضه للطبيعة المادية باعتبارها « وهما » ، وللتأثير الفارسى فى مفهومه للصراع بين الخير والشر على أنه الضد بين النور والظلمة ، وللتأثير المصرى (وخاصة من الفترة المتدهورة) فى تعامله بالسحر والعرافة وفى البحث فى عالم الجن والشياطين demonology[٢] وبالرغم من أن العقيدة فى أسمى صورها من المحتمل ألا تجتذب إلا المثقفين ، إلا أن لدينا سببا للاعتقاد بأنها كانت تتمتع بمكانة جديرة بالاعتبار بين عامة الشعب . وقد تبلغ عقيدة غامضة من العقائد الروحانية أعظم شهرة لها بين أنصاف المتعلمين ، خاصة أنصاف المتعلمين المهذبين : دليل النجاح لتلك الصورة العصرية المبسطة لمذهب العارفين ، أعنى العِلْم المسيحى . وإن مذهبا للعارفين من النوع الأسمى لهو ذلك المذهب الذى يدعو إليه الدوس هكسلى Aldous Huxley وأقرانه بمثل هذه البلاغة من لوس أنجيليس ؛ إذ هم يعتقدون بمافيه الكفاية أن مهمتهم بمثابة تقديم الفيدانتا للغرب[٣] . وخطيرة بالمثل حقيقة أن وجهة نظر هكسلى ، بالرغم من تعاطفها مع المتصوفين المسيحيين ، معادية بكل تأكيد للكنائس المسيحية عداء متبادلا وبصورة خاصة كنيسة روما .

تحطيم الأنا

فى بياننا عن تعاليم البوذا ، كنا نسعى إلى إيضاح أن التنور الذى طالَب بالوصول

---

(٢) يقال إن خمسة أوراق من أوراق البردى الخاصة بمذهب العارفين التى سبقت الإشارة إليها كتبها هيرمز ترسيمجيستوس Hermes Trismegistus (هيرموز المثلث التعظيم) ، وهى الترجمة الإغريقية للإله المصرى « توت » . والكتابات السنسكريتية لهذا المؤلف ، ولعله كان كاهناً أو مجموعة مؤلفين من الكهنة ، ألفت فى القرن الثالث الميلادى ، ولم يكن مذهب العارفين مجرد مذهب توفيقى فحسب (أعنى توفيقاً لكثير من الاتجاهات المختلفة) بل كان على استعداد لأن يستعير المصطلحات الفنية من المعتقدات المضادة ، ربما لغرض التغلغل والاندماج .

(٣) انظر كتاب « الفلسفة الدائمة » The perennial Philosophy تأليف الدوس هكسلى : وانظر أيضاً كتاب « الفيدانت للعالم الغربى » The vedanta for the Western World تأليف كريستوفر إيشروود . Christopher Isherwood

إليه بدا أنه أنار فراغا . والشخص غير المتنور ، بعينيه الروحانيتين مغمضتين ، ينعم على الأقل بالرؤى أيا كانت وهمية وخادعة . أية فائدة إذن تعقب فتح عينى الروح بالقوة ؟ أى إنعاش يمكن أن ننعم به من التطلع بثبات إلى « الضوء الواضح للفراغ » ؟ إننا نكتشف هنا لغزا من الألغاز الكبرى فى المعتقدات الشرقية العظيمة – لغزا يصعب على المفسرين العصريين للفيدانتا تفسيره لو اضطروا لتفسيره . وتنادى كل العقائد الرئيسية فى العالم بالحاجة إلى النضال من أجل صورة ما من صور الواقعية الروحية ، وهذه الواقعية عادة ماتقترن بالإله ، ولكن البوذية ، مثلها فى ذلك مثل الجينية Jainism لا إله لها . والواقعية الأساسية للمناهج الهندوسية ليست « الإله » بل « البراهمان » ، بديل مبهم للإله ، ونتيجة لذلك ، فإن أعظم الأناجيل الشرقية تناولا للعلاقة المقدسة تجد أنه يصعب عليها ، عند إيضاحها كيف أن النفس البشرية يمكن أن تحقق السعادة ، أن تتجنب إلى حد ما ، تقديم فكرة الشخصية : لأنه بدون شخصية من المستحيل تعليل ذلك الأساس فى الكون الذى بدونه الحياة والوجود يصبحان بلا معنى ، أعنى بلا حب . والحب يجب أن يكون له هدف : وذلك الهدف ، بالرغم من أنه لا نهائى يجب أن يتقاسم فى طبيعة المحب . ومحاولة وصف هدف الحب على أنه لاشخصى ، كما سبق أن رأينا ، محاولة عابثة . ونظرا لأن فكرة الحب تفترض مسبقا وجود علاقة ، وطالما أن هذه العلاقة تفترض مسبقا وجود تبادل – عطاء وأخذ ، أو بالأحرى منح واسترداد – فإن الشخصية التى تحب وتكون محبوبة تفترض مسبقا شخصا أو نفسا هو بالمثل محبوبا ويحب . ونتيجة لذلك ، فإن العقائد الشرقية التى تجرد الإله من أن تكون له شخصية ، مضطرة ، بمنطق حتمى ، لأن تجرد المحب من نفسيته . وأثناء دراستنا رأينا هذه العملية وهى تعمل بصورة متكررة . ومن أجل الاندماج مع « البراهمان » تضطر « الأنا » الفردية إلى تحمل تضحية ذاتية كاملة . وعدم الثقة الشرقية فى الفردية هو باختصار نتيجة استغراقها الدائم مع صورة من الاتحاد المقدس مساوية ، من الجانب البشرى ، للفناء .

ومع ذلك ، فقد يثار تساؤل عما هو الحب إذا كان لايؤدى إلى اتحاد فيه إنكار للذات ؟ ألايدعو حكماء الشرق فحسب إلى أسمى وأنقى صورة من صور الحب ، عاطفة (إذا لم تكن هذه كلمة ضخمة جدا) تُستبعد منها كل عناصر الأثرة ؟ ألا يجرب

المحبون ، بالرغم من إنسانيتهم ، الإحساس ، ولو بصورة عابرة إلى حد ما ، بفقدان أنفسهم فى بعضهم البعض ؟ الجواب هو نعم ، ولكن علينا فقط أن نتأمل لفترة لندرك أن هذا ليس إلا نصف التجربة وليست كلها . والمحبون الحقيقيون لايفقدون أنفسهم فى بعضهم البعض فحسب ، بل يجدون أنفسهم فى بعضهم البعض ، فإذا لم يكن الأمر كذلك فستنتهى عاطفتهم بتحطيمهم . وذلك هو جوهر العاطفة بالمعنى الفيزيائى : إنه تخريب ذاتى . وكل شريك يستخدم الآخر كموضوع يجد لنفسه فيه « مخرجا » ، وكلنا يعلم أن هذا الإسراف المفرط للحب ، الذى قد يوجد على مستوى يسمو بكثير فوق مجرد الشهوة ، كما فى العلاقة القائمة بين الآباء والأبناء ، ينتهى بإلحاق الضرر بالشخص المحبوب . والنتيجة دائما هى العقم والدمار .

ولعله واحد من أعظم متناقضات التجربة أن مأساة الحب فى أكثر مستوياتها بدائية — بدائية جدا لدرجة أنه يكاد ألايستحق أن يطلق عليه اسم الحب بالمرة — تحمل أقوى تشابه لمأساة حب فى أكثر مستوياتها تهذيبا . هذا هو المستوى الذى تطمح إليه فلسفات العارفين والبوذية والفيدانتيكية . ومفسرو هذه الفلسفات يدعون الناس إلى اندماج فى الألوهية به تتحطم النفس تماما وتنمحى . والاندماج والتحطيم الذاتى يتداخل كل منهما فى الآخر ، العملية لكونها غير شخصية ، عملية من جانب واحد . والتحول فى عاطفة الشخص إلى « شىء » مساوٍ للتحول فى صوفية الشخص إلى « مفهوم » ، والنتيجة هى بالمثل عقم . وتماما مثلما تتضمن العاطفة العمياء التحول من الإنسانية من ناحية إلى حيوانية متوحشة ، فكذلك يتضمن المذهب العقلى الأعمى التحول من الإنسانية من ناحية أخرى إلى عقم المذهب الروحى . هذا هو التفسير لحقيقة أن عقيدة ذات طابع تصوفى متطرف قد تنتكس فى أية لحظة إلى ضدها : لأن الفاصل بين المجالين واه جدا . وإن مذهبا متصوفا متحررا ، من أية نقطة يبدأ ، لهو دائما مذهب « عربيدى Orgiastic » أو « ديونيزى Dionysiac »[٤] بالمعنى الذى نادى به نيتشه Nietzsche — مرح نفسى أعمى أو جسدى أعمى . والعميان يمكن أن يشغلوا أنفسهم بأى وضع فيما عدا الرؤيا .

---

(٤) نسبة إلى ديونيزوس Dionysus إله الخمر عند الإغريق (المترجم) .

ومن ثم ، فإنه مثلما لاحظ ماكس شيلر Max Scheler (٥) ، « يمتدح البوذا الوضع الذى يولى فيه الحب ، ولكنه لا يمتدح الهدف الذى ينتهى إليه ، بمعنى آخر فإن لعزلة الذاتية فقط ، إنكار الذات الذى يتضمنه الحب ، هو الذى يجيزه » . ولاحيلة للإنسان من الإحساس بأن إدراكا لهذا القصور فى كل من البوذية وفى الفيدانتا ذاتها ، قد ألهم حكماء هنود عصريين أمثال راما كريشنا Ramakrishna لتوجيه مثل هذا الاهتمام بحقيقة أن « معرفة وحب الله هما فى النهاية شىء واحد والشىء نفسه ، ومامن فارق بين المعرفة الخالصة والحب الخالص » .ولكن هناك فارقا . والمعرفة أو العقل ، كما رأينا ، هى إدراك الخصائص عن طريق مفاهيم . وبالنسبة لمثل هذه المعرفة ليس هناك من مقابل أو تعويض . والحب من ناحية أخرى ، يتضمن نوع العلاقة التى عرَّفها مارتن بيوبر Martin Buber بأنها علاقة « أنا وأنت » كضد لـ « أنا وهو/هى (لغير العاقل) » ، و يتساءل « راما كريشنا » متى سأصبح حرا؟ : « عندما تتلاشى الـ « أنا » ، ولكن لو أن الـ « أنا » تلاشت تماما ، كيف يمكن أن تكون هناك علاقة حب ، وما المقصود بأن يكون المرء حرا ؟ لابد أن يكون هناك شىء لى لأعطيه ، حتى لو كان للتخلى عنه ، ونقيض الحب هو أنه ، فى مثل هذا التخلى ، تزداد النفس سموًّا أخلاقيا . والنفس العاجزة عن مثل هذه التضحية هى وحدها تظل عقيمة ، « أنا » معجبة بذاتها . وعلى مستوى الميتافيزيقيات ، فإن إنذار البوذية وتعاليم الفيدانتا بتحطيم « الأنا » كتمهيد للاندماج مع « المطلق » ، هو فى المقام الأول لإكمال الإلغاء ثم لتحريك الصفر إلى مالا نهاية . ونحن نعلم طبقا لتعليم الفيدانتا ، أن مايتكشف عندما تنمحى الـ « أنا » هو الآتمان Atman والآتمان واحد من البراهمان ، ولكن إذا لم تكن هناك تضحية ، مجرد إلغاء فقط ، لايمكن أن تكون هناك موهبة ، ولو لم يكن هناك ، من جانب الألوهية ، تداخل واقعى ، لايمكن أن هناك نعمة . وكما نذكر ، جادل كابيلا Kapila فى أن المعرفة الحقيقة تكشف عن أنه « لا أنا موجود ، ولا أى شىء مِلْك لى ولا وجود لى بالفعل » . ولكن نحن موجودون فعلا ، وليس هدف الفلسفة ، إلى حد كبير ، تحطيم الوجود بقصد جعله ذا مغزى .

---

(٥) انظر الفصل الثالث من كتاب «وضع البشر فى الكون Die Stellung des Menschen im Kosmos. (١٩٢٨) .

ويمكننا الآن أن نلخص إجابتنا عن السؤالين الأولين اللذين وجهناهما إلى أنفسنا : فى أن الفارق الرئيسى بين الفكر الشرقى والغربى ، لو نظر إليه نظرة عريضة جدا ، لاتضح أنه يكمن فحسب فيما طرأ على الفكر الشرقى عندما دخل ، نتيجة للإلهام المسيحى ، مبدأ روحى جديد فى المجال الطبيعى بغرض تحويله . وليس من هدف كتابنا هذا ، الذى يستبعد التبريرات ، أن يتساءل لماذا كان على المسيحية أن تعمل بهذه الطريقة ، ولكن مما تجدر الإشارة إليه معا أنه لم تَسْعَ أية ديانة شرقية أخرى لتحقيق مثل هذا الغرض ، وأن الحواريين المسيحيين الأولين ، بالرغم من اختلاف أمزجتهم وقدراتهم ، كانوا واضحين تمام الوضوح فى أفكارهم الذاتية بالنسبة لجدَّة وأصالة عقيدتهم ، والإنجيل الرابع بتفسيره الفلسفى عن التجسيد ، من الواضح أنه موجَّه إلى فلسفات العارفين عن « الروح الخالصة » التى كانت مشهورة وقت ذاك[٦] . « فى البدء » يقول الكاتب (وقد يكون يوحنا وقد لا يكون) ، كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله »[٧] بمعنى آخر كان عالم الروح ، منذ زمن سابق للوحى المسيحى ، فى عزلة لا نهاية لها عن عالم المادة ، ولذلك فقد يتخذ الدين صورتين : إما تلهُّف النفس للاندماج فى ألوهية بعيدة المنال ، أو أن تصير عبادة طبيعية سافرة لمذهب وحدة الوجود Pantheism . وفى الواقع لقد كانت هاتان هما الصورتان اللتان اتخذتهما الديانة فى العالم السابق لظهور المسيحية . ومع ذلك ، لما قَدِم المسيح عليه السلام تبدل الموقف . ولقد أظهر النظام الاجتماعى فى عالم الغرب ، لما كما سبق أن أوضحنا ، حركة ثورة وعنف Sturm und Drang ، إن شئت ، غريبة كل الغرابة عن أى شىء فى الشرق ، بل حدث فى ذلك الوقت أن صار الشرق وقد تغلغلت فيه أفكار الغرب عن عبادة القومية . وإننا لنأمل أن ما بُشِّر به كثيرا من « يقظة الشرق » لن يبرهن على أنها كانت يقظة من حلم خاص سعيد إلى كابوس فرد آخر .

---

(٦) يقول دكتور دود Dr. Dodd فى كتابه عن الأناجيل About the Gospels (١٩٥٠) إن الإنجيل الرابع كتب «لمن كانوا يتحولون من الوثنية الشعبية ساعين إلى طريق أنقى وأكثر روحانية فى الدين» . وقد يعتقد الإنسان أنه قصد به ، بالمثل ، من كانوا يسعون إلى شىء أكثر ثباتاً ورسوخاً ، بينما كانت تجذبهم فلسفات لا روحانية خالصة .

(٧) إنجيل يوحنا ، الأصحاح الأول آية (١) (المترجم) .

التوفيق ، صحيحه وزائفه :

والسؤال الأخير الذى يجب أن نوجهه لأنفسنا فى النهاية ، خاص بإمكانيات « التوفيق » بين الفكر الشرق والفكر الغربى . وقبل البدء فى تناول هذا الموضوع الصعب ، ولو أنه موضوع مألوف ، فإنه من واجبنا أيضا أن نوضح نقطة هى أنه : ليس من المتوقع لتقارب ما لو خطط تخطيطا دقيقا أو صار موضوعا لقرارات حماسية فى مؤتمر ما من المؤتمرات الدولية أو لو اتخذ صورة مرشد عام لتعاليم أخلاقية – ليس من المتوقع أن يبرهن على فعاليته . وقد يكون من الحماقة الإقلال من قدر جهود الأشخاص دعاة السلام والوئام لإيجاد تناسق بين العقائد المتطاحنة أو لإزالة أقل سوء تفاهم ، ولكن يظل مثار شك ما إذا كانت المحاولة اليائسة لإيجاد أساس للاتفاق (وعادة ما يمكن قبوله لصيغة شفوية بشكل ما) هى فى فائدتها كفائدة عبارة صريحة عن أوجه الاختلاف. وربما كان الناس على استعداد لأن يوضحوا إلى أى مدى هم على اتفاق أو، كما هو متبع فى أية مناقشة سياسية أيديولوجية ، كيف أن كلا يعتبر نفسه بطلا يفضُل غيره : مثلا أعلى متميزا لصفة (مثل الديمقراطية). وفى العمل معا ، لايكون « الإجماع » أقل ضرورة بكثير ، بل يكون فى الواقع أقل تعميما بكثير عما هو عادة مفروض . ويتضح هذا فى عنف النقد ، فيما هو غالبا موجود من شدة النفور الشخصى داخل التنظيمات التى تمثل فى نظر العالم جبهة متحدة . وأكثر الاتحادات فعالية هى عادة تلك التى يتفق فيها الأعضاء على الاختلاف فى الرأى فيما عدا الشقاق ، أما أقلها فائدة فهى تلك التى أمكن التخلص منها قبل وقت الأزمة بدلا من التخلص منها وقتها . ولو كان على الكنائس ، بقصد إخفاء الشقاق فى البلاد المسيحية ، أن تلجأ إلى عادة استقطاب خلافاتها ، لكان هناك خطر جسيم من أن روح التوفيق قد تؤدى بها أو ببعضها إلى أكثر الروابط حيرة : وهو ما حدث فى ألمانيا النازية . وهناك شكوى متكررة من أن الأحلاف تتصدع لو زال عنها الخطر المشترك مرة ، ولكن هذا هو ما ينبغى على الأحلاف أن تفعله . ونحن نعرف من خبرتنا أى مشهد محزن تعرضه لو لم تفعل ذلك . ومن الأفضل بالنسبة للمذهب المادى والمذهب الروحانى الزائف أن يتصدى لها المسيحيون كمسيحيين والمسلمون كمسلمين والبوذيون كبوذيين ، عن أن

يتحد معتنقو هذه العقائد ليتكلموا باسم كيان ماغامض يسمى الدين ، أو المثالية ، أو حتى الفلسفة الدائمة .

هذه الملاحظات التى قُصد بها إحباط المحاولات الزائفة للوصول إلى وفاق ، يجب ألا تفسَّر على أنها دعوى لكل منا إلى جماعته التى انفصل عنها وبذا يتجنب جهد الفهم المتبادل . وقد يبدو مثل هذا الاقتراح غريبا فى خاتمة لكتاب من هذا اللون ، إذ يجب علينا ، على عكس ذلك ، أن نضاعف جهودنا لدراسة صور أخرى من المعتقدات ، خاصة تلك التى تبدو أنها تختلف اختلافا كبيرا عن معتقداتنا الشخصية . وهناك اتجاه يؤسف له – حتى لوكان الأمر كذلك – اتجاه إلى التخبط على غير هدى بحثا عن تنوّر ، فى الوقت الذى نهمل فيه ما هو قريب منا . ولو قادتنا دراسة الدين المقارن ، كما سبق أن اقترحنا ذلك ، إلى الاعتقاد بأن صورا معينة من الفكر قد انتعشت مع اختلافات محلية ، فوق بقاع واسعة ، مدللة بذلك على أن البشرية المتحضرة تتجه فى غياب إلهام ما معين إلى احتضان نوع معين من العقيدة ، لأمكننا أن نتقصى بنجاح عما إذا كان مثل هذا الاتجاه ، بغض النظر عن الأمثلة التى سبق أن سقناها ، واضح فى التأملات الفلسفية فى الوقت الراهن . ومتابعة مثل هذا التقصى قد تبدو لأول مرة عبثا : أولا ، لأننا سبق أن عزونا إلى الفكر الشرقى لامبالاة فى التمييز بين الدين والفلسفة ، وثانيا ، لأنه يبدو ، بالفحص السريع ، أن الفلسفة الأكاديمية فى أوربا قد فصلت نفسها إلى حد بعيد عن الدين لكى تستبعد الاحتمال بأن يصير مثل هذا الاتجاه واضحا . ولا شك أن هذا الافتراض لا أساس له من الصحة ، لأن اتجاها ما يمكن أن ينبئ عن نفسه بصورة فعالة تماما فى أسلوب سلبى أو أسلوب إيجابى ، وقد يُعزى جدب الكثير من الفلسفة الغربية ، على وجه الدقة ، إلى الافتقار إلى تلك الصورة من التعضيد الذى استمدت منه قوَّتها فى القرون السابقة . ويمكننا أن نكتشف ، بالمثل ، حتى فى المناهج أو النظريات التى لم تظهر إلى النور فى الوقت الراهن ، دافعا – وغالبا مايكون نتيجة ضعف – نحو نوع من مذهب يقينىّ dogmatism كان مقرونا وقت ذاك « بخرافات » الماضى .

ونظرية الوضعية المنطقية – وهى تدَّعى أنها تشكل منهجا – قضية فى صلب الموضوع . والوضعية المنطقية ، كما يفسرها مختلف المفسرين الذين لا يتفقون

جميعهم ، قد تمتعت بشهرة فى إنجلترا وإلى حد ما فى أمريكا التى بعد أن عرفت جدب مضمونها ، لم تر فيها شيئا جديرا بالاعتبار . وليس هنا المجال سواء لإعطاء موجز لتاريخها أو لشرح آرائها بالتفصيل ، وينبغى أن نكتفى ببيان عريض عن أهدافها . والهدف الرئيسى للوضعية المنطقية Logical Positivism هو أن يؤثر فى عزل « الميتافيزيقيات » . ويتحقق هذا بتطبيق ما يسمى بمبدأ التحقق والإثبات Principle of Verifiability . وطبقا لهذا المبدأ تندرج كافة البيانات الخطيرة تحت فئتين . إما أنها تمثل بيانات يمكن التحقق منها فى الواقع أو « من حيث المبدأ » أو أنها مجرد لغو tautologies . وكل الجمل التى تتضمن بيانات أو شبه بيانات ، لا تندرج تحت أى من هاتين الفئتين تستبعد ، على اعتبار أنها غير معقولة وبلا معنى nonsensical .

هذا هو كما قلنا ملخص بسيط لنظرية الوضعية المنطقية ، وبالرغم مما لها من مفسرين شديدى الحماس ، فإنه من المعروف أنها تتضمن غوامض ، فمثلا ، لو حدث فى الواقع مرة أن احتاج تحقيق إلى أن يعقبه تحقيق « من حيث المبدأ » ، لتخلصنا بالفعل من مجال التدجيل ولاستطعنا أن ندخل مجالا آخر ، ولن يكون من السهل اختيار أى معنى يمكن إسناده ، بناء على نظرية تدعى أنها تخلصت من مفهوم « الحقيقة truth » إلى زيادة استعمال كلمة التحقق Verification . والنقطة التى نود أن نوجه إليها الأنظار هى ما يلى : لو أن نظرية الوضعية المنطقية صحيحة ، فإنه يستتبع ذلك أن كل الأفكار تقريبا التى فسرها الزعماء الروحانيون للجنس البشرى منذ بداية العصر كانت لا معنى لها . وهذه الأفكار لا تمثل فى الواقع مفاهيم واضحة – بل لغطا عاطفيا[٨] emotional noises ، ومثل هذا فى الواقع هو النتيجة التى يقف حيالها

(٨) جدير بالذكر أن البروفسور ا . ج آير A.J.Ayer فى كتابه المشهور : اللغة حقيقة ومنطق "Language, Truth and Logic" (ط ٢ مع مقدمة جديدة سنة ١٩٤٧) يسقط من حسابه ليس فقط عبارات الميتافيزيقيين واللاهوتيين على اعتبار أنها غير معقولة ، بل يسقط من حسابه أيضا عبارات مثل هذه العبارات السلوكية الشائعة ، أمثال (سرقة المال جرم) فهذه الجملة كما يقول آير هى جملة ليس لها من معنى واقعى » . ومثل هذا الجدل يتمى بكل تأكيد إلى ذلك النوع من النظرية الخرقاء التى علق عليها س . ب . برود C.B.Broad بقوله إنه يمكن قبولها فقط فى قاعة محاضرات للفلسفة . وقد يكون طريفاً أن نشاهد فى حالة استدعاء أحد دعاة الوضعية المنطقية إلى المحكمة لاتهامه بسرقة طفيفة مالوكانت هذه الصورة من الدفاع لها تأثير على القاضى ، إذ ماهو منتظر أن يحدث من إجراءات قانونية لو صار كافة القضاة من دعاة الوضعية المنطقية .

الوضعيون المنطقيون مكتوفى الأيدى باختيارهم .

ولو كان لوجهة نظر الوضعية المنطقية ما يبررها ، لما استتبع ذلك فحسب اعتبار الميتافيزيقية واللاهوت صورا غير مشروعة للبحث والتقصى ، بل لما كانت كل القيم التقليدية لحياتنا المتحضرة شيئا أكثر من أوهام ولكنك لا تستطيع أن تحارب الخرافات إلا من وجهة نظر معينة ، إما أنها « منطقية » أو حتى « حقيقة » . وواضح أنه بالرغم من بُعد الوضعية المنطقية عن القيم المطلقة ، فهى تحتى طول الوقت شيئا ما « مطلقا » فى طياتها . وفضلا عن ذلك ، فإنه فى القول بأن عبارات الميتافيزيقيين واللاهوتيين « هراء عاطفى » ، لا يعد دعاة الوضعية المنطقية (كما تستبين فظاظة جدلهم بشكل واضح تماما) فوق مستوى الشبهات هم أنفسهم . وتوكيدات مثل : « الميتافيزيقيات هراء » لها تأثيرها البالغ من حقيقة كونها فى جهاد ضد الغموض والجهل . وأخيرا ، فإن الوضعىَّ المنطقى فى نضاله العقائدى ، ليس بريئًا من اتباع أسلوب عقائدى فى عظمته كعظمة غرمائه التقليديين .

المطلق المستتر : The Concealed Absolute

لعل القارئ قد أدرك الآن فكرة هذا الانحراف digression . والفيلسوف ، على النقيض من السفسطائى او المفتى أو أى داعية من دعاة المذهب المادى الهندى « تشارفاكا Charvaka »أو المذهب الجدلى Dialectician ، يدور اهتمامه حول (ولنستخدم عنوان كتاب عصرى مشهور من كتب الفلسفة) « تفسير الكون » ، وتتفق مهمته مع معنى وقيم الحياة ، وحتى لو تنصل من هذه المهمة ، بقصد التفاخر ، فستظل مسئوليات مهنته ملقاة ثقيلة على عاتقه ، وستتعقبه نفس المشاكل التى يحاول أن يتخلص منها . وما يتخلص منه – أو ما يزيله من على وجه الأرض كما يقول بود سنيب Podsnape فى كتابه « صديقنا المشترك Our Mutual Friend » – سيعود لمضايقته . هو أشبه بشخص نَقَلْتَه إلى قمة جبل فى يوم كثيف الضباب : سكة حديد جبلية أو عربة تليفريك teleferic car يسخر من الرحلات التى يقوم بها من يصعدون الجبل على أقدامهم بصعوبة ، ويظل متجاهلا حقيقة أن القمة تشكِّل جزءا من مجال تعبيرى لشخصية متغيرة إلى ما لانهاية . إن كل ما يراه أمامه نصبا تذكارية حجرية من صنع الإنسان .

ووجهة النظر الفلسفية الكنسية الضيقة هذه هى التى يتبناها دائما من أسماهم الأسقف بيركلى Bishop Berkeley « بالفلاسفة الثوريين minute philosophers » ، والمنهج المنطقى المنسق المرتب لبنائهم الخاص هو الهرم الصخرى cairn ، ولكن تماما مثلما أن هذا الهرم الصخرى لم يستقر على السهل أسفل الجبل بل على قمة الجبل وهو رمز الإنجاز ، فكذلك « قضايا » منطقيينا المعاصرين ، تمثل أقصى تجرد للغة من تراثها الفكرى والعاطفى ، فهم يفترضون مسبقا وجود « جبل » الفلسفة الذى صعده الناس فى الماضى جاهدين ليكون فى إمكانهم إعداد أفضل وضع فى الوقت الراهن حتى يمكنهم ابتكار مختلف أساليب الصعود .

وتوحى المجادلات التى تدور حول الوضعية المنطقية كما يوحى التأثير الهدام لنظرياتها ، وقبل كل شىء الحماس الذى يتصدى به دعاتها للدفاع عنها ، توحى بأنها تُقاسم طبيعة عقيدة . وإذا ما دخلنا مرة فى مجال عقيدة ، فإن عدم الإيمان أو « التشكك المسلح » ، فى خطورته وإعلامه كالتوكيد الصريح للعقيدة . والخطأ البسيط أو المعيب ، لو كشف مرة لاستحق الدفن الهادئ : ولسنا فى حاجة لأن نثرثر ونثور على قبره . بيد أن خضم الميتافيزيقيات واللاهوت يرى فى هذه الأشياء وسيلة قوية للإمساك بالروح البشرية فهو يعتبرها بمثابة « أفيون الناس » ، ومن هنا كانت ضغينة التشهير به ، لأنه يعتقد فى نفسه بالمثل أنه زعيم مثقف ستتسابق الجماهير للإنصات إليه يوما ما ؛ ولذلك فإننا لا ندهش لسماع الادعاء المألوف بالنزاهة ، بالرغم من أننا لا نعلم على أية أسس فلسفية يمكن أن يبرَّر مثل هذا الولاء التام .

والنظرية التى وجهنا إليها الاهتمام تمثل الوضع النهائى الذى اتخذه الفكر الغربى فى هروبه من « مثالية » الفلسفة التقليدية فى كلا الغرب والشرق . وعبارة « مثالية » من المعروف أنها كلمة لا تشفى فى صور عديدة ، إذا اقترنت لفترة طويلة بنظرية معينة عن المعرفة . ولكن عبارة « روحانى Spiritual » ليست أفضل بكثير ، وعبارة « خارق للطبيعة Supernatural » ربما كانت ، تحقيقا لغرضنا ، أسوأ العبارات جميعها . وتبقى حقيقة أن كل كبار مفكرى البشرية قد لاحظوا تمييزا بين الحقيقة الروحانية والحقيقة المادية ، وأنهم قد حاولوا أن يفسروا الأخيرة بالرجوع إلى الأولى وليس العكس . « لقد راعينا أن نهتم بأقل عامل تفسيرى بدلا من اهتمامنا بأسماها ، كمفتاح

لمشاكلنا . نحن نفسر التصوفية فى عبارات تستخدم فى الطب وعلم الأمراض ، فى حين فسَّر القدامى المحسوس Sensible بتفسيرات دينية وبأسمى فلسفة كان فى استطاعتهم أن يفكروا بها » (٩). قد رأينا أن مثل هذا المذهب الشكى والمذهب المادى يظهران فى فترات معينة فى كل تقليد فلسفى فى الهند ، فى الصين ، فى اليونان ، فى أوربا فى القرن السابع عشر . وقد وصف المؤلف هذا الدافع إلى المذهب الشكى ، وأخيرا الدافع إلى مذهب اللاشيئية nihilism إلى أنه المناهض للفلسفة الدائمة anti-philosophia perennis . ولو لم يكن لدى أوربا المعاصرة شيء لتعلن به عن نفسها سوى هذه العقيدة الإقليمية provincial doctrine لبلغ فقرنا أقصى مداه ؛ ولكن ما من أحد على استعداد لأن يعطى لمثل هذه الأمور أهمية ، يمكنه أن يتجاهل تأثير نظرية فلسفية أخرى أكثر عمقا وهى المعروفة باسم المذهب الوجودى أو الوجودية Existentialism . وهنا يلاحظ مرة أخرى أن المدارس متعددة والجدل عنيف والنظرية بوجه عام غارقة فى غوامض . وداخل « الوجودية » ، كداخل أى مبدأ عريض يهدف إلى فهم الوجود ، كل الاتجاهات الكبرى للبحث الفلسفى واضحة من أقصى الروحانية إلى أقصى المادية : فى تباين لمنهاج قاصر مثل الوضعية المنطقية حيث تبقى العناصر الروحانية مستترة recessive إلى حد كبير . هذا الظرف الذى قد يدفع بالطالب إلى أن يصبح فى حيرة ، يهدى إلى اتجاه عام للفكر ، ولما كان هذا الاتجاه هو اتجاه نحو فهم لمعنى الحياة الذى قد يحتمل أن يتضمن إثبات أنها بلا معنى ، فإنه لا بديل لنا من أن نقتفى أثره .

لقد وجه تولستوى Tolstoy الاهتمام فى مقال له بعنوان « ما أومن به What I Believe » إلى حقيقة يجب على دارسى الدراسات الفلسفية والاجتماعية والسيكولوجية أن يصبحوا على علم بها فى النهاية : أعنى أن الفقر الفكرى المطلق الذى لو تخلص مرة من القدر الكبير من الحدس والتأمل لظل ظاهرا . ولربما ساعد قدر كبير من حقيقة ، توجتها نظرية خيالية شرقية ، لربما ساعد ، لعدة سنوات فى إخفاء هذا القصور ، ولكن يجب أن نقرر أن القرن التاسع عشر بكل منجزاته فى المجال التكنيكى

(٩) انظر كتاب . عقل وقلب الحب "The mind and Heart of love" تأليف : م . س . دارسى ، س ، ج . M.C.d'Arcy, S.J. ص ٣٤ .

لم يخلّف للبشرية إلا القليل فى مجال الحكمة . وكل ما عنده من تفاؤل وثقة بذاته ووعوده بالحرية والرخاء ، قد أعقبها انفجاران دوليان يعدان اليوم بأن يبلغا ذروتهما فى ثالث . وقد كانت هذه الحقائق واضحة لعقول العصر الأكثر حساسية ، ولعل السيرة الذاتية لجون ستيوارت ميل John Stuart Mill كانت أكثر وثائق العصر تأثيرا وإفجاعا : إذ لما بلغ « ميل » حافة اليأس والانتحار من جراء المذهب النفعى التخطيطى Calculating utilitarianism الذى درسه ، لم يجد « ميل » شيئا يلجأ إليه سوى شعر ويردزويرث Wordsworth ، فلما تقدمت به السن ، لجأ إلى ديانة غامضة تنادى بالإصلاح meliorisitc religion . وقد حلت بـ « تولستوى » نفسه أزمة عاطفية مماثلة وإن اختلفت صورتها . ومع ذلك ، فلقد كان ما هو أكثر خطورة بالنسبة لعصرنا هو الصراع الانفرادى الذى حاربه يائسا : سورين كيركجارد Soren Kierkegaard ، المفكر الدنمركى .

ومن رأى كيركجارد — الذى ولد فى سنة ١٨١٣ وتوفى فى سنة ١٨٥٥ — أن إنسانية عصره الغامضة صارت لا معنى لها ، بل صارت مجردة من كل فهم وإدراك حتى حقيقة واحدة . وكانت هذه الحقيقة هى الموت ، والقول بأن كيركجارد كان واحدا من أقلية من كبار المفكرين الذين يدركون أن الموت مآل الناس قد يعنى التمسك بوجهة نظر غريبة عما يشكل العظمة . وهناك عصور غير هذه العصور ، وأحيانا حضارات كاملة غير هذه الحضارات—مثل حضارة مصر وبابل—شغلتها حقيقة الموت ، ولكن هدف كيركجارد—وقد يكون من الأيسر جدا أن نقول رغبته—هو أن يفعل أكثر من مواجهة معاصريه بعبارة « تذكر الموت Memento mori» ، فلقد اهتم بأن يوضح أن الموت ، بكونه توقفا كاملا ، قد سخر من كل الآمال والقيم التى قامت عليها حضارة القرن التاسع عشر . ولإخفاء مهزلة الموت ، لم يتوقف فى الواقع قط كل من علماء الإنسانية والعقليين فى القرن التاسع عشر عن أن يقدموا وعودا طائشة بانتصار مؤزر يحرزه العلم على الموت ، وكان لابد من تحقيق ذلك إما بصنع الحياة ذاتها أو بإطالة الحياة البشرية إطالة لا نهاية لها ، لأنه بعد مهزلة الموت تأتى ، كما سبق أن لاحظنا ، مهزلة الكهولة .

ولإدراك طبيعة الوجود الحقة ، كما قال كيركجارد ، هو أن تواجه اليأس ، لأنه

أوضح حقيقة للوجود ، أعنى أن نهايتها الفجائية ، طالت أم قصرت ، ليست مفهومة على المستوى الوجودى[١٠] . ونحن فى الوجود ننتمى إلى شىء – أسرة ، مجتمع ، مهنة ، وطن ، أجناس بشرية ، ولكن عند الموت ننتمى فقط إلى أنفسنا ، ولهذا نحن مضطرون لأن نعيش فى حالة عذاب (قلق) دائم . ونخدم المجموعة التى نحن أعضاء فيها حتى يوم وفاتنا . ولكن لما كنا على علم بأن خدمة على مثل هذه الشاكلة أمر لا يعبأ به مجتمع ما سجَّل مرضنا ، فسنستمر بقدر ما كانت عليه من قبل . وكل الإجراءات الدقيقة للخدمة الاجتماعية ، وقبل كل شىء تأمين « من المهد إلى اللحد » ، هى محاولات وهمية « للإنسان المواطن » ، ليوحى لنفسه بأن المجتمع يهتم « بالإنسان الفرد » . والواقع هو أن المجتمع لا يعيره أى اهتمام ، لأن المجتمع ، نظرا لأنه لا شخصية له ، غير أهل للجزع . والدولة ذات الخدمات الاجتماعية التى يعتقد المثاليون الاجتماعيون العصريون أنها أعظم المنجزات فى عصرنا ، هى فحسب الحارس القضائى للمثل العليا للإنسانية المفلسة .

وليس الموت وحده هو الذى يحيل الحياة لا معنى لها ، وإذ نفس الشىء صحيح بالنسبة للرغبة ، كما أشار إلى ذلك بالفعل شوبنهاور Schopenhauer . وهنا تتقارب وجهة نظر الوجوديين من وجهة نظر كبار حكماء الشرق وبصورة خاصة وجهة نظر البوذا . وعلى المستوى الطبيعى ، فإن كل الحب حتى حب المتطلّب اسميا ، حب بلا أمل ، لانه يخلق صورة ويهيئ آمالا يعجز الإنسان عن تحقيقها ونظرا لاستحالة بلوغ مثل هذا الأمر وتملكه ، نشأت هناك فى أوربا تلك العقيدة المسماة بعقيدة إيروس Cult of Eros[١١] ، وهى عقيدة ، كما أوضح كثير من الكتاب العصريين[١٢] ، ولّدت فضيلة الإحباط واليأس . وهناك لحظة تمر بها كل حالة من حالات الحب يصبح

---

(١٠) من المحتمل أن تصبح هذه الحقائق أكثر وضوحاً عند ذوى المزاج الرقيق ، وهذا يذكر المرء بملاحظة « مين دبيران Maine de Biran » وهى : إن « الأشرار هم من يحسون وحدهم بالوجود "Seuls les gens malsains se sentent exister"

(١١) ايروس : إله الحب عند الإغريق . (المترجم) .

(١٢) على سبيل المثال س. س. لويس C.S. Lewis فى كتابه « أنشودة الحب » "The Allegory of Love" وكذلك دنيس دى روجمان Denis De Rougement فى كتابه الحب والمجتمع Passion and Society ترجمة مونتجمرى بليجيون "Montgomery Beligion"

فيها التملك والرضا أو ما يطلق عليه أخصائيو إحصائيات الجنس الأمريكيون اسما غير جذاب على الإطلاق ، يصبح شيئا غير ملائم ، عندما « لا يمكن لأى اتصال محتمل بالجسد ، أن يهدئ من حمى العظام » ، عندما يكاد يكون الهدف الأصلى منسيا أو ، لو استحضر لتبين أنه قلّ أن يدرك . ورفض مواجهة مثل هذه الحقائق أو استبعادها على اعتبار أنها ادعاء خيالى ، لا يكفى . ومحاولة اعتبار العاطفة لا عاطفية ، سواء « كحقيقة بيولوجية » أو ضرورة صحية ، يولّد عذابها الذاتى بصورة خاصة ، لأن الشهوة بسرّيتها الرهيبة ، أقل إذعانا بكثير للقناعة منها للحب . . وكل الداعرين خبرتهم ذاتية . Solipsists

وعلى غير شاكلة غيره من معظم رمل اليأس المعاصرين ، وجد كيركجارد جوابا لمشاكله فى الإيمان ، ففى الإيمان وحده صار توتر الوجود محتملا أو حتى يمكن إدراكه ، لأن الناس يمكن أن يتعلموا « تحمل » الحياة فى صور مختلفة – فهناك حل قصير المدى لكل شىء . وحتى الفلاسفة المعاصرين الذين لا يتقبلون حل كيركجارد يواجهون على الأقل هذه المشاكل الأساسية بإصرار . وللإصرار ، مع « جان بول سارتر Jean-Paul Sartre » على أن « الإنسان عاطفة عديمة النفع » هو أن نقول على الأقل إن شيئا ما مذكر ، عاطفى ، ومن ثم فهو ليس عديم النفع تماما . وليس مصادفة أن الإنسان وحده يمكن أن يقول هذه الأشياء ، إنه يمكن أن يؤكد لو أمكنه فقط أن ينكر ، وأنه يمكن أن يتحمل نتائج مثل هذا التوكيد والإنكار . وفى دراستنا الشاملة ، مررنا بمفكر فى إثر مفكر – المصرى عدو البشر ، والحكماء : خخيبر يسونب ، ايبور ، أمينيموب ، زارادشت ، وكاتبو المزامير العبرانيين والأنبياء العبرانيون وكبار الزعماء الروحانيين فى الهند والصين – الذين نادوا ، وغالبا ماكان دون ما استناد إلى منطق أو تأييد من إلهام ، نادوا « بالعلاقة المقدسة » ، « ماعت » ، « الطاو » ، « الطريق » ، بإجماع يستحيل أن نخلطه بمحض اتفاق ، ومن الحماقة استبعاده على أنه وهم أوشِعْر ، وليس مصادفة أن يلقب مثل هؤلاء الأشخاص بالجيناس Jainas أو النبيين والبوذات والمبشرين بالتنور ورمل الحكمة ، كما لا نتصور زمنا ستصبح فيه تعاليمهم غير عصرية ، ما لم يشأ رجال فى النهاية أن يجحدوا إنسانيتهم جملة . وعالم الغرب ، وقد أمد الشرق ببعض نماذج غامضة من حكمته الذاتية ، قد يستفيد فائدة تامة من معرفةٍ أعمق بهذا التعقيد الشرقى العظيم ، الذى يعيد إلى الأذهان منبع الحكمة الذى استمد منه إيمانه

الذاتى . وهناك كثيرون ممن لابد وأنه يبدو لهم دائما أن اللاشيئية الواضحة للفكر الشرقى فاشلة ، وفى رأيهم أن الدعوة إلى الهروب من الطبيعة وابتغاء عالم الروح فيما وراء الإدراك ما هو إلا نموذج غريب للغرور الإنسانى والزيف الذاتى ، ويجب على كل شخص أن يختار من هذا المستودع ما يوائم احتياجاته الفردية . ولعل أكثر التعاليم ألفة واجتذابا للعقلية الغربية هى التى تحتويها الـ « بهاجافاد – جيتا » مع توكيدها على الـ « بهاكتى » أو التعبد للإله لأننا نكتشف فى رؤيا « سرى – كريشنا » إلى « أرجونا » أنبل رسالة صدرت عن عالم الشرق قاطبة : الدعوات إلى مواجهة المستقبل ومخاطره فى استسلام ، فى رهبة ، بل حتى فى لمسة من عذاب ، بل وبلا خوف .